جامعة الأزهر
كلية أصول الدين بالقاهرة

حادثة الإفك

دروس ... وعبر

دكتور
أحمد رمضان مصطفى دياب
مدرس التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الصادق الوعد الأمين . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين ..

أمـــا بعـــد

فإن القرآن الكريم هو النور الهادي إلى صراط الله المستقيم ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهو أساس النجاة والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، بالتمسك به تكون الهداية والأمن والسعادة والاستقرار في حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، وبالإعراض عنه يكون الشقاء والحسرة والندامة والمعيشة الضنك والتخبط في الظلمات والخسران المبين في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1]

ولما كان القرآن الكريم كذلك ، كان لا بد من فهمه ، وتدبر معانيه ، والعمل بما فيه ، والرجوع إليه ، نستنير بنوره ، ونهتدي بهداه ، ونقف على ما فيه من

١- الآيات ١٢٣ :١٢٧ من سورة طه .

توجيهات وعبر ودروس مستفادة ، وإلا فلا نَلُومَنَّ إلا أنفسنا .

وهذا البحث الموجز محاولة متواضعة لتدبر بعض آيات الكتاب العزيز ، والوقوف – بقدر طاقتي البشرية – على مراد الله تعالى في تلك الآيات التي نزلت في شأن حادثة الإفك ، أردت به المساهمة – ولو بشيء قليل – في إصلاح ما أفسدته المدنية الحديثة من قيم وآداب وأخلاق ، لتستقيم الحياة، ويتحقق الصلاح والإصلاح على مستوى الفرد والمجتمع ، إن شاء الله رب العالمين . قال تعالى :

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾[1] .

فإن كنتُ وفِّقْتُ إلى ما إليه قصدتُ فالخيرَ أردتُ، وهو محض فضل من الله وإن كانت الأخرى فمن نفسي وتقصيري، وأرجو من الله غفران الذنوب، والحمد لله في الأولى والآخرة .

وقد جاء هذا البحث – بعد هذه التقدمة – مشتملاً على مطلبين وخاتمة

المطلب الأول : حادثة الإفك في ضوء الكتاب والسنة .

وفيه قمت بتفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، الواردة في خبر الإفك، تفسيراً موجزاً ، بعبارة سهلة لا غموض فيها ولا إبهام ،بما يحقق الغرض، ويوصل إلى المقصود ، دون الخوض في كثير من المسائل التفصيلية، إلا فيما يحتاج إليه المقام .

٢– آخر الآية ٨٨ من سورة هود .

المطلب الثاني : الدروس المستفادة من حادثة الإفك .

وفيه تعرضت لأهم التوجيهات والعبر والدروس المستفادة من الآيات والأحاديث ، مع ربطها بالواقع المعاصر ما أمكن .

وأما الخاتمة فذكرت فيها مراجع البحث وفهرس الموضوعات .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

والله تعالى من وراء القصد

دكتور

أحمد رمضان مصطفى دياب

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

المطلب الأول

حادثة الإفك في ضوء الكتاب والسنة

يقول الله تعالى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾[١]

صدق الله العظيم

* صلة الآيات بما قبلها :

الصلة بين تلك الآيات وما سبقها قوية جداً وظاهرة أيضاً ، حيث إن الآيات السابقة تحدثت عن جريمتي الزنا والقذف ، وبعد أن بيّنت الآيات حكم القذف العام والقذف الخاص – أعني قذف الأزواج والمشهور بالملاعنة – أوردت الآيات نموذجاً واقعياً من القذف العام ، لتكشف به الآيات عن شناعة الجرم وبشاعته ، تلك هي حادثة الإفك .

والله أعلم بأسرار كتابه

١- الآيات ١١ : ٢٠ من سورة النور .

سبب نزول الآيات :

نزلت هذه الآيات في شأن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، حين رماها أهل الإفك بما قالوه كذباً وبهتاناً . فأنزل الله براءتها في هذه الآيات .

أخرج البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم بأسانيدهم عن الزهري قال :

أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة ، زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوا . وكلهم حدثني طائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض . وأثبت اقتصاصا[١] .

ذكروا أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً ، أقرع بين نسائه . فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه .

قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمي . فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب . فأنا أحمل في هودجي[٢] . وأُنزَلُ فيه مسيرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة . آذن[٣] ليلة بالرحيل . فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل . فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار[٤] قد انقطع . فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤُهُ . وأقبل الرَّهط[٥] الذين كانوا

١- قال الإمام النووي : أي أحفظ وأحسن إيراداً وسرداً للحديث . وهذا الذي ذكره الزهري من جمعه الحديث عن هؤلاء الأربعة جائز . لا منع منه ولا كراهة فيه ؛ لأنه قد بين أن بعض الحديث عن بعضهم وبعضه عن بعضهم . وهؤلاء الأربعة أئمة حفاظ ثقات من أجل التابعين . فإذا ترددت اللفظة من هذا الحديث بين كونها عن هذا أو ذاك لم يضر ، وجاز الاحتجاج بها . لأنهما ثقتان . وقد اتفق العلماء على أنه لو قال : حدثني زيد أو عمرو ، وهما ثقتان معروفان بالثقة عند المخاطب ، جاز الاحتجاج به ، أ. هـ.

٢- الهَوْدج – بفتح الهاء والدال وسكون الواو – مَركَب من مراكب النساء ، عبارة عن مقصورة ذات قبة – وقد لا يقبب – توضع على ظهر البعير لتركب فيه النساء لتسترهن . أفاده الصحاح ٣١٧/١ ، لسان العرب ٣٨٩/٢ ، المعجم الوجيز ٦٤٦/ مادة هدج .

٣- تعني : أعلم . من الأذان وهو الإعلام .

٤- العقد : قلادة تعلق في العنق للتزيين ، والجَزْع – بفتح الجيم وإسكان الزاي – خرز يماني : وظفار – بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء ؛ مبنية على الكسر في جميع أحوالها – قرية في اليمن

٥- الرهط : ما دون العشرة من الرجال . لا تكون فيهم امرأة . الصحاح ٨٨١/١ مادة رهط .

يرحلون لي[1]، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه.

قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً، لم يُهَبَّلنَ[2] ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلقَة[3] من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج[4] حين رَحَلُوهُ ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيممتُ منزلي[5] الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المُعَطّل السُلَمي ثم الذكواني، قد عرَّس[6] من وراء الجيش فأدْلَجَ[7]، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ[8] إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليَّ، فاستيقظت باسترجاعه[9] حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي[10]، فوالله ما يكلمني[11] كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطِيء على يدها فركبتها، فانطلق

١- أي يجعلون الرحل على البعير، وفي بعض الروايات: (يرحلون بي) بالباء.

٢- ضبطوه على أوجه، أشهرها: ضم الياء وفتح الهاء والباء المشدودة، ومعناه: لم يسنلن باللحم والشحم، يقال: هبله اللحم إذا أثقله وكثر عليه وركب بعضه بعضا. الصحاح ١٣٧٢/٢ مادة هبل.

٣- العُلقة: بضم العين، يعني القليل.

٤- وقع في بعض الروايات (خفة الهودج) بدل (ثقل الهودج).
قال ابن حجر: وهو أوضح. لأن مرادها إقامة عذرهم في تحميل هودجها وهي ليست فيه. فكأنها تقول: كأنها خفة جسمها بحيث إن الذين يحملون هودجها لا فرق عندهم بين وجودها فيه وعدمها. ولهذا أردفت ذلك بقولها (وكنت جارية حديثة السن)، أي أنها مع نحافتها صغيرة السن، فذلك أبلغ في خفتها. وقد وجهت الرواية الأخرى - ثقل الهودج - بأن المراد لم يستنكروا الثقل الذي اعتادوه، لأن ثقله في الأصل إنما هو مما رُكّبَ الهودج منه من خشب وحبال وستور وغير ذلك، وأما هي فلشدة نحافتها كان لا يظهر بوجودها فيه زيادة ثقل. والحاصل أن الثقل والخفة من الأمور الإضافية، فيتفاوتان بالنسبة.

٥- تعني قصدته.

٦- التعريس: النزول آخر الليل في السفر لنوم أو استراحة، أفاده الصحاح ٧٥١/١ مادة عرس.

٧- أدْلَجَ القوم - بالتخفيف - إذا ساروا من أول الليل، وادَّلَجُوا - بالتشديد - إذا ساروا آخر الليل الصحاح ٢٩١/٢ مادة دلج.

٨- السواد - ضد البياض - يطلق على الشخص، أيّ شخص كان، فكأنها قالت: رأى شخص آدمي، لكن لا يظهر أهو رجل أو امرأة.

٩- أي انتبهت من نومي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

١٠- تعني: غطته وسترته.

١١- صيغة المضارع هذه تدل على استمرار ترك المخاطبة منه، لئلا يُفهم - لو عبرت بالماضي - اختصاص النفي بحال الاستيقاظ.

يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة[1]، فهلك من هلك في شأني. وكان الذي تولى كِبره[2] عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكت - حين قدمنا المدينة - شهراً، والناس يُفيضونَ في قول أهل الإفك[3]، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يُرِيبُنِي[4] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف[5] الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيُسلِّمُ ثم يقول: (كيف تيكم)؟[6] فذاك يريبني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقِهت[7]. وخرجت معي أم مسطح قِبَل المناصع[8]، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف[9] قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه[10]. وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح. وهي بنت أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر ابن عامر، خالة أبي بكرٍ الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قِبَل بيتي. حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها[11]. فقالت: تعس[12] مسطح. فقلت لها: بئس ما قُلت. أتسبين رجلاً قد شهد بدرا. قالت: أي هنتاه[13]!

١- موغرين: بضم الميم وكسر الغين المعجمة والراء المهملة، أي نازلين في وقت الوَغْرَة، وهي شدة الحر، لما تكون الشمس في كبد السماء، ونحر الظهيرة: وقت القائلة وشدة الحر.

٢- سيأتي تفسيره إن شاء الله.

٣- تعني: يخوضون فيه.

٤- يريبني: بفتح أوله وضمه، من الريب. يقال: رابه وأرابه إذا أوهمه وشككه.

٥- تعني البر والرفق واللين

٦- تيكم إشارة إلى المؤنثة. مثل ذاكم للمذكر.

٧- نقِهت: بفتح القاف وقد تكسر، والأول أشهر. والناقة - بكسر القاف - الذي أفاق من مرضه ولم تتكامل صحته.

٨- المناصع: مواضع خارج المدينة: كانوا يتبرزون فيها.

٩- الكُنُف: جمع كنيف، وهو يطلق في اللغة على عدة معان، ترجع كلها إلى الستر، ولكنه صار - من حيث العُرف - بحيث إذا أطلق لا ينصرف إلا مَوْضع قضاء الحاجة، ولذلك جاء في المعجم الوجيز ٥٤٣/٣ مادة كنف: من معاني الكنيف: المرحاض.

١٠- التنزه: طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء.

١١- المرط: كساء من صوف أو غيره.

١٢- تعس: بفتح العين وكسرها لغتان مشهورتان، وهو لفظ يُدعى به على الغير، معناه: عثر، وقيل: هلك، وقيل: بَعُد، وقيل: لزمه الشر، وقيل: سقط بوجهه خاصة.

١٣- هنتاه: لفظة تختص بنداء المؤنث، ومعناه: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نُسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم، وإذا نودي المذكر قيل: يا هنة، أو يا هناه.

أولم تسمعي ما قال ؟ قلت : وماذا قال ، قالت : فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي، فدخل عليَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام، فسلم ثم قال : (كيف تيكم) ؟ ، قلت : أتأذن لي أن آتيَ أبويَّ ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبلِهما ، فأذن لي رسول الله قط ﷺ ، فجئت أبويّ فقلت لأمي : يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ فقالت : يا بنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[1] عند رجل يحبها ولها ضرائر[2] إلا كثرن عليها[3] ، قالت قلت سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ[4] لي دمع ولا أكتحل بنوم[5]، ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبث الوحي[6]، يستشيرهما في فراق أهله، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال : يا رسول الله ! هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير[7] ، وإن تسأل الجارية تصدقك . قالت : فدعا

١- الوضيئة مهموزة ممدودة هي الجميلة الحسنة ، والوضاءة : الحُسن .

٢- الضرائر : جمع ضرة ، وزوجات الرجل ضرائر ، لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى .

٣- أي أكثرن القول في عيبها ونقصها .

٤- أي لا يسكن ولا ينقطع .

٥- استعارة للسهر .

٦- بالرفع : أي طال لبث نزوله ، وبالنصب : أي استبطأ النبي ﷺ نزوله

٧- قال ابن حجر : وهذا الكلام الذي قاله عليّ حمله عليه ترجيح جانب النبي ﷺ ، لما رأى عنده من القلق والغم ، بسبب القول الذي قيل ، وكان ﷺ شديد الغيرة ، فرأى عليّ أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها، إلى أن يتحقق براءتها ، فيمكن رجعتها ، وقال النووي : رأى عليّ أن ذلك هو المصلحة في حق النبي ﷺ، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه ، فبذل=

رسول الله ﷺ بريرة فقال : " أي بريرة ! هل رأيت من شيء يريبك من عائشة " ؟ . قالت له بريرة : والذي بعثك بالحق ! إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه[1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الداجن[2] فتأكله .

فقالت : فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فاستعذر[3] من عبد الله بن أبي بن سلول . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : " يا معشر المسلمين ! من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي " .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري[4] فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان

=جهده في النصيحة، لإرادة راحة خاطره ﷺ، وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : لم يجزم عليّ بالإشارة بفراقها، لأنه عقب ذلك بقوله "وسل الجارية تصدقك " ، ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ ، فكأنه قال : إن أردت تعجيل الراحة ففارقها ، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها ،أ. هـ فتح الباري ٨ / ٣٢٤

١- أغمصه : بفتح الهمزة وكسر الميم وبالصاد المهملة ، أي أعيبها به .

١- الداجن : الشاة التي تألف البيت ، ولا تخرج للمرعى ، ومعناه: أنه ليس فيها شيء مما تسألون عنه أصلاً ، ولا فيها شيء من غيره ، إلا نومها عن العجين .

٣- أي طلب العذر ، كأنه قال : من يعذرني أو يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعاله ولا يلومني

٤- ذكر سعد بن معاذ في قصة الإفك مشكل ، لأن الإفك وقع بعد غزوة المريسيع ، وهي غزوة بني المصطلق، وكانت في السنة السادسة للهجرة ، كما ذكره أكثر كتاب السير ، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات إثر غزوة الأحزاب من الرمية التي أصابته ، وكانت الأحزاب سنة خمس على أصح القولين، أعني٤ هـ أو ٥ هـ ، ولذلك اختلف العلماء ، فذهب بعضهم إلى أن المريسيع كانت بعد الأحزاب ، وذكر سعد ابن معاذ هنا وهم ، والأشبه أنه غيره، قيل إن المتكلم أولاً وأخيراً أسيد بن حضير، وذهب البعض إلى أن المريسيع كانت قبل الخندق، وعليه يستقيم ذكر سعد بن معاذ في الإفك . والأولى أن تكون المريسيع قبل الأحزاب ، لما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، وإدعاء الوهم وهم ، والله أعلم .

راجع : فتح الباري ٣٢٧/٨ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٧/٩ .

من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عباده ، وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن اجتهلته[١] الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت . لعمر الله ! لا تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت . لعمر الله ! لنقتلنه .

فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان[٢] الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم[٣] حتى سكتوا وسكت.

قالت : وبكيت يومي ذلك ، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتي المقبلة ، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي ، استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها ، جلست تبكي . قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم لمس ، قالت ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء ، قالت فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : " أما بعد. يا عائشة! فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب[٤] فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه " .

١- اجتهلته : بالجيم والهاء أي استخفته وأغضبته وحملته على الجهل ، وفي بعض الروايات – كما عند البخاري – احتملته : بالحاء والميم ، ومعناه : أغضبته .

٢- أي تناهضوا للنزاع والعصبية ، كما قالت هي : هموا أن يقتتلوا .

٣- يخفضهم : يُهَوِّن عليهم ، أفاده الصحاح ٨٤١/١ مادة خفض .

٤- معناه : إن كنت فعلت ذنباً وليس ذلك لك بعادة ، وهذا أصل اللمم ، أي أن ذلك الفعل ليس من عادة الفاعل ، بل وقع منه عرضاً .

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعي[١] حتى ما أحس[٢] منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال . فقال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله ﷺ. فقالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت وأنا جارية حديثة السن ، لا أقرأ كثيراً من القرآن : إني والله ! لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلت لكم إني بريئة – والله يعلم أني بريئة – لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم أني بريئة – لتصدقونني ، وإني والله مـا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قـال أبو يوسف :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [٣] .

قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله ! حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيَّ بأمر يتلى ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرأني الله بها ، قالت : فوالله ! ما رام[٤] رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٥] عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر[٦]

١- قلص : بفتح القاف واللام ، أي استمسك نزوله فانقطع وارتفع ، لاستعظام مـا صدر من النبي ﷺ ، وما يعنيني من الكلام .

٢- أي ما أجد .

٣- آخر الآية ١٨ من سورة يوسف .

٤- أي ما فارق .

٥- البُرَحَاء : بضم الموحدة وفتح الراء وبالحاء المهملة والمد ، هي الشدة . قال في الصحاح ٣٢٠/١ مادة برح ، وبرحاء الحمى وغيرها : شدة الأذى ، تقول منه بَرَّحَ به الأمر تبريحاً أي جهده وضربه ضرباً مُبَرِّحاً ، أ. هـ.

٦- أي يتصبب .

منه مثل الجمان[١] من العرق ، في اليوم الشات ، من ثقل القول الذي أنزل عليه ، قالت : فلما سُرِّي[٢] عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : (أبشري يا عائشة . أما الله فقد برَّأك) .

فقالت لي أمي : قومي إليه[٣] . فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ، هو الذي أنزل براءتي ، قالت فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ .. ﴾ عشر آيات ، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي ، قالت : فقال أبو بكر – وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره – والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً ، بعد الذي قال لعائشة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ[٤] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾[٥].

فقال أبو بكر : والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش ، زوج النبي ﷺ عن أمري (ما علمت ؟ أو ما رأيت ؟) ، فقالت : يا رسول الله ! أحمي سمعي

١– الجُمَان : بضم الجيم وتخفيف الميم هو الدر ، شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ في الصفاء والحسن .

٢– أي كشف وأزيل .

٣– تعني : قومي فاحمديه واشكريه لحسن صنيعه .

٤– أي لا يحلف ، والألية : اليمين .

٥– الآية ٢٢ من سورة النور ، وفي متن الحديث عند مسلم بعد الآية : قال حبان بن موسى : قال عبد الله بن المبارك : هذه أرجى آية في كتاب الله .

وبصري[١] ، والله ما علمت إلا خيراً ، قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني[٢] من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها[٣] ، فهلكت فيمن هلك .

قال الزهري : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط[٤].

١– تعني : أصونه .

٢– تساميني : مفاعلة من السمو وهو الارتفاع ، والمعنى : تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ.

٣– معناه : جعلت حمنة تتعصب لأختها ، فتحكي ما يقوله أهل الإفك .

٤– الحديث متفق عليه ، أخرجه مسلم – واللفظ له – في كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ، حديث رقم ٢٧٧٠ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١١٥/٩ وما بعدها

* وأخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة النور ، باب (لولا إذ سمعتموه.......... الآية، حديث رقم ٤٧٥٠ ، كما أخرجه في كتاب الشهادات ، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً برقم ٢٦٦١ ، وأخرجه– مختصراً – في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب (وأمرهم شورى بينهم) ، برقم ٧٣٧٠ . صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٣١٩/٥ وما بعدها

٣٠٦/٨ وما بعدها ، ٣٥١/١٣ وما بعدها .

* وأخرجه أحمد في المسند ٩/١٨ وما بعدها ، برقم ٢٥٤٩٩ ، وبنحوه في ٢٩٢/١٧ وما بعدها من حديث عائشة رضي الله عنها . * وأخرجه – بنحوه – الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة النور ، برقم ٣١٩١ ، سننه ١٢٢/٥ وما بعدها . * وأخرجه الطبري في الجامع ٩٠/١٨ وما بعدها . * وأورده السيوطي في الدر المنثور ١٤٠/٦ وما بعدها ، وفي لباب النقول /١٥٧ وما بعدها . * وأورده الو احدي في أسباب النزول /١٧٩ وما بعدها .

* كما أخرجه غيرهم ، وفيما ذكر غُنْيَة .

* وقد اعتمدت في شرح ألفاظ الحديث على ما جاء في شرحي الإمام النووي والحافظ ابن حجر للحديث ، والله أعلم .

• دراسة الآيات وبيان معناها :

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء .

وقيل : الإفك هو البهتان ، وهو الأمر الذي لا تشعر به حتى يفجأك[١] . وإن كان الإفك كثيراً ما يُفسَّر بالكذب مطلقاً ، لكنه في التحقيق شر أنواع الكذب وأسوأها وأقبحها على الإطلاق .

وسُمِّي الكذب إفكاً لأن فيه قلباً لحقيقته ، وصرفاً عما يجب أن يكون عليه ، كأن الكاذب الأفاك يرى الحق واضحاً بيناً ، فيعدل عنه إلى قول الباطل وينصرف إليه ،لأن الإفك في الأصل مشتق من الأفك- بفتح الهمزة وسكون الفاء – وهو القلب والصرف ، والقول المأفوك هو المصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، قال الراغب رحمه الله :

الإفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب مؤتفكة ، قال تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾[٢]، وقال ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ ﴾[٣]، وقوله تعالى ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٤] . أي يُصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل ، ومن الصدق في المقال إلى الكذب ، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح ، وقوله ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾[٥]استعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى

١– الكشاف ٢١٢/٣ .

٢– آخر الآية ٩ من سورة الحاقة .

٣– الآية ٥٣ من سورة النجم ، وفيها إخبار عن قـرى قـوم لـوط ، حيـث قلبـها الله ، وجعل عاليها سافلها.

٤– آخر الآية ٣٠ من سورة التوبة .

٥– من الآية ٢٢ من سورة الأحقاف .

الباطل ، فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا ، ورجل مأفوك مصروف عن الحق إلى الباطل ، قال الشاعر :

فإن تك عن أحسن المروءة مأفوكاً ففي آخرين قد أفكوا ، أ. هـ[١].

* والمراد بالإفك هنا – بإجماع العلماء – ذلك القذف الكاذب الذي رُميت به أم المؤمنين الطاهرة العفيفة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها ، على أن اللام في "الإفك" للعهد ، فقد صارت تلك الحادثة تُعرف بحادثة الإفك ، وكأن هذا الإفك صار علماً عليها ، فإذا قيل : حادثة الإفك ، فإن الذهن لا ينصرف إلا إليها .

ويجوز حمل اللام فيه على الجنس ، فيفيد القصر ، كأنه لا إفك إلا هو[٢].

* وإنما وصف الله عز وجل ما وقع على السيدة عائشة بالإفك ، لأنها رضي الله عنها كانت تستحق الثناء والمدح ، بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والديانة ، فمن رماها بالسوء فقد قلب الأمر عن وجهه[٣]، وصرفه عما يجب أن يكون عليه ، وعدل عن أمارات الحق الواضحة الواقعة بين يديه إلى الباطل الذي لا ريب فيه .

يقول الإمام الرازي رحمه الله :

وإنما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكاً ، لأن المعروف من حال عائشة – رضي الله عنها – خلاف ذلك ، لوجوه :

أحدها : أن كونها زوجة للرسول ﷺ المعصوم يمنع من ذلك ، لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم، فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم

١– مفردات غريب القرآن /١٩ ، ٢٠ مادة أفك .

٢– حاشية الشهاب ٢١/٧ .

٣– تفسير الخازن ٢٨٧/٣ بتصرف .

عنهم، وكون الإنسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات[1] .

وثانيها: أن المعروف من حال عائشة – رضي الله عنها – قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور ، ومن كان كذلك كان اللائق

١– فإن قيل : كيف جاز أن تكون زوجة النبي كافرة – كامرأة نوح ولوط – ولم يجز أن تكون فاجرة ، مع أن الكفر أعظم جرماً من الفجور والزنا ؟

قلنا : إن الكفر ليس من المنفرات ، أما الفجور فمن المنفرات ، ولما كانت دعوى الرسل تقتضي عدم وجود المنفرات ، جاز لزوجة النبي أن تكون كافرة ولم يجز لها أن تكون عاهرة فاجرة ، فإن قيل : إذا كانت دعوى الرسل تقتضي عدم وجود المنفرات، ولم يجز أن تكون فاجرة فكيف خفي الأمر على رسول الله ﷺ ، وضاق قلبه بما أشيع على زوجته ، وحدث له من الهم والغم ما حدث، حتى قال لعائشة :" إن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه " ؟

قلنا : لقد كان النبي ﷺ بلا شك يعلم أن من شروط النبوة السلامة عن المنفرات، وفي مقدمة ذلك صيانة أزواجهم من الفجور ، وإنما ضاق قلبه ﷺ بما أشيع على زوجته ، لأنه ﷺ كثيراً ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه ﷺ بفساد تلك الأقوال ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ – الحجر /٩٧ – فكان هذا من هذا الباب .

يراجع: التفسير الكبير ١٥٠،١٥١/٢٣.

* وأما ما حدث له ﷺ من الهم والغم فذلك أمر طبعي ، بحكم بشريته ﷺ ، فقد جبل الناس على حدوث ذلك لهم في مثل هذه المواقف .

فالنبي ﷺ – بحكم بشريته – يعتريه ما يعتري سائر البشر ويصيبه ما يصيبهم من الهم والحزن والانفعال والتوتر والشك والاضطراب ، وما شابه ذلك .

ومما زاد الأمر حيرة وارتياباً أن الوحي قد انقطع شهراً كاملاً، بينما نار الفتنة متأججة مستعرة، فكيف يكون حال الرسول الكريم ﷺ .

ولا مانع من القول بأن هذا الشرط قد خفي على النبي ﷺ لمزيد الابتلاء له ﷺ ولغيره ممن أصيب بهذا البلاء ، وخفاء هذا الشرط عليه ﷺ لا يقدح في منصب النبوة ، بل على العكس .

لقد كانت حادثة الإفك من أعظم الأدلة على صدق النبي ﷺ في دعواه النبوة ،كما سيتضح في الدروس المستفادة إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

إحسان .... الظن به .

وثالثها : أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم ، وقد عرف أن كلام العدو المفتري ضرب من الهذيان .

فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي.أ.هـ[1] .

* وفي التعبير بلفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل[2]. كما أنه يدل على الغرابة ، ولا أغرب من اتهام الطاهرة العفيفة في شرفها .

* ولم تصرح الآيات باسم السيدة عائشة رضي الله عنها في هذا المقام تنزيهاً لمقامها العالي ، وحفظاً لجانبها السامي ، وتقديساً لاسمها من هذا البهتان .

قوله تعالى ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ .

"عصبة " خبر "إن" ، وقيل : بدل من الضمير في " جاءوا " ، والخبر جملة " لا تحسبوه .." ، والضمير في " تحسبوه " عائد إلى مضاف مقدر ، أي فعل الذين جاءوا ..، وكون " عصبة " خبر " إن " هو الأظهر والأكثر فائدة ، وأما الثاني ففيه تكلف ، كما قال الشهاب في حاشيته[3]، و" منكم " صفة لـ "عصبة"

* والعصبة في أصل اللغة : الجماعة المتعصبة المتعاضدة ، قلّت أو كثرت وكذلك العصابة ، واعصوصب القوم : اجتمعوا وصاروا عصباً[4] .

ومدار المادة – عصب – على الشدة[5]، يقال : يوم عصيب . يعني شديد ،

١- التفسير الكبير ١٥٠،١٥١/٢٣ .

٢- تفسير أبي السعود ٧٣/٤ ، روح المعاني ١٦٥/١٧ .

٣- حاشية الشهاب ٢٢/٧ .

٤- المفردات /٣٣٦ مادة عصب ، الكشاف ٢١٢/٣ .

٥- نظم الدرر ٢٤٠/٥ .

ومنه قوله تعالى :﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ ﴾[١].

فالعصبة إذاً هي الطائفة المجتمعة التي يشد بعضها بعضاً ، ويشتد أمرهم بهذا الاجتماع .

وقد اختُلف في عددها ، فقيل : العصبة ثلاثة رجال ، وقيل من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : من العشرة إلى الخمسة عشر ، وقيل : من العشرة إلى الأربعين ، وقيل : العصبة : أربعون رجلاً[٢].

وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين ،وإن كانت تطلق على أقل من ذلك ،وفي مصحف حفصة رضي الله عنها "عصبة : أربعة"[٣].

* وفي التعبير بلفظ العصبة تحقير لأهل الإفك، فالتعبير به يفيد القلة ، كما يفيد اجتماعهم وتآمرهم فيما بينهم على قول الباطل وترويجه وإشاعته ، كأنهم عصابة خططت لذلك ، قال الألوسي في فائدة كون عصبة هي الخبر : والفائدة في الإخبار على الأول قيل : التسلية بأن الجائين بذلك الإفك فرقة متعصبة متعاونة ، وذلك من أمارات كونه إفكاً لا أصل له ، وقيل : الأولى أن تكون التسلية بأن ذلك مما لم يُجمَع عليه ، بل جاء به شرذمة منكم[٤].

* وقد وردت الروايات الصحيحة بتسمية أفراد تلك العصبة ، وهم : عبد الله ابن أبي بن سلول رأس المنافقين وحسان بن ثابت ، ومِسْطَح بن أُثَاثَة وحَمْنَة بنت جحش ، وهناك من ساعدهم ولم يرد ذكر اسمه .

١- الآية ٧٧ من سورة هود .

٢- الأول والثاني عن ابن عباس ، والثالث عن مجاهد ، والرابع ما عليه الأكثر ، والخامس عن ابن عيينة ، تفسير القرطبي ١٣٢/١٢ .

٣- روح المعاني ١٦٩/١٧ .

٤- المرجع السابق .

* وعَدَّ بعضهم زيد بن رفاعة رضي الله عنه من أفراد تلك العصبة ، ورفض البعض كونه منهم ، قال الألوسي : لم نر فيه نقلاً صحيحاً ، وقيل : إنه خطأ[١].

* ومن الناس من برَّأ حسان بن ثابت أن يكون من أفراد تلك العصبة ، لكنه خلاف ما في الصحيحين وغيرهما ، ربما لم يتكلم حسان رضي الله عنه بالإفك عن صميم قلب ، وإنما نقله عن ابن أُبَيّ – لعنه الله – بلا قصد .

فقد ورد أن حسان رضي الله عنه اعتذر للسيدة عائشة رضي الله عنها عما نُسبَ إليه ، فقال في أبيات يمدح بها أم المؤمنين رضي الله عنها :

حصان رزان ما تزن بريبة   وتصبح غرثي من لحوم الغوافل[٢].

كما ورد أيضاً أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تكرم حساناً بعد الإفك وتذكره بخير وتأذن له وتدعو له بالوسادة ، وتقول رضي الله عنها : لا تؤذوا حساناً فإنه كان ينصر رسول الله ﷺ بلسانه ، وكانت تقول : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

هجوت محمداً وأجبت عنـــه   وعند الله في ذاك الجـــزاء

١- روح المعاني ١٧ / ١٦٩ .

٢- وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت له : ولكنك لست كذلك.
تفسير ابن كثير ٢٦٤/٣ ، الدر المنثور ١٥١/٦ ، تفسير القرطبي ١٣٣/١٢ .
والبيت من قصيدة لحسان في مدح السيدة عائشة بعد أن نزلت براءتها من الإفك ، وقد نـــدم حسان واعتذر عما وقع فيه ، والحصان : العفيفة ، والرزان كالثقال معناه قليـــل الحركـــة ، والرزينة : الثابتة التي لا يستخفها الطيش ، وتزن : ترمي وتتهم ، والريبة : التهمة والـــشك ، وغرثي : جائعة، والغوافل : جمع غافلة ، ومعنى وتصبح غرثي من لحوم الغوافـــل أي خميـــصة البطن من أكل لحوم المؤمنات العفيفات الغافلات ، والله أعلم.
هامش السيرة النبوية ١٩٦/٣ ، هامش جامع البيان ٨٨/١٨ .

فإن أبي ووالده[1] وعرضي   لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفءٍ   فشركما لخيركما الفداء

لساني صارم لا عيب فيه   وبحري لا تكدره الدلاء.[2]

* كما ورد أيضاً أنه لما بلغ صفوان بن المعطل قول حسان في الإفك، ضربه بالسيف علي رأسه ، وقال له:

تلق ذباب السيف عني فإنني   غلام إذا هوجيت لست بشاعر

فلما ذهبوا به إلي رسول الله ﷺ قال له النبي ﷺ : يا حسان أحسن في الذي أصابك ، قال حسان: هي لك يا رسول الله ، فأهدر الرسول ﷺ جرحه وعوضه عنه[3].

كل ذلك مما يؤكد اشتراك حسان بن ثابت في الإفك ، والله أعلم .

* والخطاب في قوله تعالي (منكم) لجماعة المؤمنين ، والمعني : إن الذين جاءوا بالإفك جماعة منكم أيها المؤمنون، من أهل ملتكم، وممن ينتسبون إليكم، وفيه إشارة إلي أنهم يعيشون بين المؤمنين ويتغلغلون في أوساطهم، وحسبك أن حمنة بنت عمة رسول الله ﷺ وأخت زوجته أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش وزوجة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، ومسطحاً رضي الله عنه له بأبي بكر قرابة، وكان الصديق ينفق عليه، وكان حسان رضي الله عنه شاعر الرسول الكريم ﷺ.

* وقيل : الخطاب في " منكم " لمن ساءه ذلك من المؤمنين ، ويدخل فيه

١- ويروى : ووالدتي .

٢- جامع البيان ٨٨/١٨ .

٣- تفسير القرطبي ١٢/ ١٣٢ ، روح المعاني ١٧/ ١٧٢، السيرة النبوية ١٩٤/٣ ، ١٩٥ ، البحر المحيط ٢٠/٨

رسول الله ﷺ وعائشة وصفوان وأبو بكر وزوجته أم رمان ، دخولاً أوَّليّاً[1].

* فإن قيل : كيف قال (منكم) وكان عبد الله بن أبي معلوم النفاق ؟

قلنا : إن قوله تعالى (منكم) لا ينافى كون ابن أبيّ رأس المنافقين ضمن هذه العصبة ، إما لأنه كان ينتسب إلى الإيمان ، لأنه مِن جملة مَن حكم له بالإيمان ظاهراً، فكان يعامل معاملة المسلمين ، وإن كان كافراً في نفس الأمر. وإما أن يكون قوله (منكم) قد خرج مخرج الغالب ، وأغلب هؤلاء العصبة كانوا من المؤمنين المخلصين[2]، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

استئناف خوطب به كل من أساءه الإفك وتأذى به واغتم ، وعلى رأسهم : الرسول الكريم ﷺ وعائشة وصفوان وآل أبي بكر ، تسلية لهم من أول الأمر[3] .

وضمير الغائب – الهاء – في " تحسبوه " عائد على الإفك ، يعني : لا تحسبوا الإفك ، ويجوز أن يعود على القذف ، يعني : لا تحسبوا القذف ويجوز أن يعود على ما نال المخاطبين من الغم ، يعني : لا تحسبوا ما نالكم وأصابكم ، كما يجوز أن يعود على المصدر المفهوم من "جاءوا "[4] والحسبان : أن يحكم لأحد النقيضين من

١- روح المعاني ١٦٩/١٧ .

٢- تفسير الخازن ٢٨٧/٣ .

٣- وقيل : الخطاب بـ " لا تحسبوه " للقاذفين ، وكينونة ذلك خيراً لهم : حيث كان هذا الذكر عقوبة معجلة كالكفارة ، وحيث تاب بعضهم عنده ، وحيث صار ما نزل من القرآن مانعاً لهم من الاستمرار عليه فصار، مقطعة لهم عن إدامة هذا الإفك .
وهذا القول ضعيف جداً ، لأن الله تعالى قال بعد ذلك " لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم"، ومعلوم أن نفس ما اكتسبوه لا يكون عقوبة . فالمراد : لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب في الآخرة والمذمة في الدنيا ، والمعنى : أن قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض ، والله أعلم .
ينظر : التفسير الكبير ١٥١/٢٣ ، ١٥٢ ، البحر المحيط ٢٠/٨ .

٤- البحر المحيط ٢٠/٨ ، روح المعاني ١٧٠/١٧ .

غير أن يخطر الآخر بباله ، ويقارب ذلك الظن ، لكن الظن أن يخطر النقيضان بباله فيغّلب أحدهما على الآخر.[1]

والشر : الذي يرغب عنه الكل ، كما أن الخير هو الذي يرغب فيه الكل.[2]

والخير والشر ضربان : مطلقان ومقيدان ، فالخير المطلق هو ما كان مرغوباً فيه بكل حال وعند كل أحد ، كالجنة والعقل والفضل والشيء النافع..الخ ، والشر المطلق ما كان على ضده ، أي يرغب عنه بكل حال وعند الجميع ، كالنار وما يضر الإنسان .

وخير وشر مقيدان ، وهو أن يكون خيراً لواحد ، شراً لآخر ، كالمال الذي ربما يكون خيراً لزيد وشراً لعمرو ، وكذلك الولد ، وما شابه ذلك ، ولذلك وصف الله الأموال والأولاد في القرآن الكريم بالأمرين ، أعني بالخير والشر .[3]

قال أهل العلم : حقيقة الخير: ما زاد نفعه على ضره ، وحقيقة الشر : ما زاد ضره على نفعه، وإن خيراً لا شر فيه هو الجنة ، وشراً لا خير فيه هو جهنم ولهذا صار البلاء النازل على الأولياء خيراً ، لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا ، وخيره – وهو الثواب – كثير في الآخرة ، فنبه الله المخاطبين أنه ما أصابهم منه شر ، بل هو خير ، على ما وضع الله الشر والخير عليه في الدنيا من المقابلة بين الضر والنفع ، ورجحان النفع في جانب الخير ، ورجحان الضر في جانب الشر .[4]

كأنَّ الله تبارك وتعالى يقول للمخاطبين : لا تحسبوه شراً لكم ، فإنه وإن كان في ظاهره شراً لكنه في حقيقة الأمر ومآله خير لكم .

١- المفردات ١١٧/ ١١٨ . مادة حسب .
٢- المرجع السابق /٢٠٧ مادة شر .
٣- المرجع السابق /١٦٠ مادة خير ، بتصرف .
٤- أحكام القرآن لابن العربي ٣٦٣/٣ ، تفسير القرطبي ١٣٢/١٢ ، فتح القدير ١٢/٤ .

• والتعبير بالجملة الاسمية " بل هو خير لكم " يفيد ثبوت هذا الخير ودوامه للمخاطبين .

• والسؤال الذي يطرح نفسه هنا مؤداه :

ما وجه الخير من هذا الإفك الذي نال من عرض الرسول ﷺ وزوجه، وشكك الرسول ﷺ في أهله ، ولوَّث رائحة المدينة شهراً كاملاً ؟

وللإجابة عن ذلك نقول:

إن وجوه الخير في الإفك كثيرة ومتعددة ، وتبدو من نواح كثيرة ، أشار إليها المفسرون قديماً وحديثاً[1]، منها :

أولاً : حصولهم على الثواب العظيم بسببه .

فالله تعالى جعل الإفك كفارة لمن أوذي به ، ورتَّب أعظم الثواب لمن صبر على ذلك الأذى ، والجزاء على قدر البلاء ، والمنحة على قدر المحنة كما يقولون .

ثانياً : ظهور كرامتهم على الله تعالى .

وذلك بإنزال الآيات في براءتهم ، وتعظيم شأنهم ، وتشديد الوعيد فيمن تكلم بما أحزنهم ، والثناء على من ظن بهم خيراً ، ثم إنه تعالى جعل الإفك لهؤلاء لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة ، وهذا غاية الكرامة والفضل.

ثالثاً : كشف الله تعالى به مخططات الأعداء .

فقد كان هدف الأعداء من الإفك الطعن في النبوة ، وتشكيك المسلمين في قيادتهم وقدوتهم ، وأن يفقد المجتمع المسلم حياءه ، وينعدم منه التحرج من ارتكاب الفواحش[2]، فلم يكن هدف أهل الإفك محصوراً في قذف امرأة ، بل كان موجهاً

١- راجع في تفسير الآية : جامع البيان ، الكشاف ، التفسير الكبير ، تفسير ابن كثير ، روح المعاني ، البحر المحيط ، أنوار التتريل ، تفسير أبي السعود ، تفسير الخازن ، في ظلال القرآن ، زهرة التفاسير .
٢- فإذا كانت زوجة النبي كذلك فلا حرج على غيرها .

إلى الدعوة الإسلامية ونبيها الكريم ﷺ ، ولهذا قال الخبيث عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين الذي ابتدأ هذا الكلام : (امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها) [١].

فانظر إلى قوله " امرأة نبيكم ". لم يقل الخبيث : امرأة محمد ولا بنت الصديق ولا عائشة مثلاً ، ولكنه أكد على مسألة النبوة .

رابعاً : ظهور كذب المُدَّعِين .

فلولا إظهارهم للإفك لجاز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض ، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر ، وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك ، وأوجب لهم الذم، وتوعدهم على ما قالوا .

خامسا : بيان فضل السيدة عائشة رضي الله عنها .

وذلك حيث أنزل الله عز وجل في شأنها قرآناً يتلى إلى يوم الدين ، ليكون لسان صدق وشاهد عفة لها في الدنيا، ورفعة منزلة في الآخرة، فلولا الإفك ما ظهرت تلك المنزلة السامية للسيدة عائشة رضي الله عنها.

على حد قول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت ... أتـاح لـها لسـان حسـود

فلولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود .

فظهر فضل السيدة عائشة ، حتى صارت بحال تعلق الكفر والإيمان بقدحها ومدحها [٢] ، لذلك حينما تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب أنا التي نزل تزويجي من السماء ، فقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتابه، حين حملني ابن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة ما قلت حين ركبتيها؟

١- جامع البيان ٨٩/١٨ .

٢- فإن الله تعالى نَصَّ على كون تلك الواقعة إفكاً ، وبالغ في شرحه ، فمن شك فيـه كـان كافراً قطعاً ، وهذه درجة عالية للسيدة عائشة رضي الله عنها ، التفسير الكبير ١٥١/٢٣ .

قالت : قلت حسبي الله ونعم الوكيل ، قالت زينب : قلت كلمة المؤمنين [١].

سادساً : وهذا الإفك خير لمسلمين جميعاً .

حيث جعله الله تعالى سبباً لنزول تلك الآداب والأحكام ، التي يجب على المجتمع المسلم أن يتخلق بها ، ويتحلى بنورها ، ليفوز بسعادة الدنيا والآخرة، فجاءت الآيات نوراً مبيناً تكشف للمسلمين الطريقة المثلى في معالجة مثل هذه المواقف ، وتبين لهم كيف تحارب الشائعات ، وكيف تواجه المكائد ، وتسجل فضل الله ورحمته على هذه الأمة المحمدية ، وتحذر هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في مجتمع المسلمين من العقاب الإلهي ، فلم تكن خيرية الإفك إذاً خاصة بالمخاطبين فقط، بل جاءت عامة لكل المسلمين، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، والحمد لله رب العالمين .

أما الهم والغم والألم الذي فعل بالرسول ﷺ وأهله والمسلمين الأفاعيل بسبب تلك الشائعات فهو جزء من البلاء الملازم للدعوات الصادقة ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، يبتليهم الله بالمحن ليُزَكّي نفوسهم ويطهر أفئدتهم ، وهل يُزَكَّى الذهب إلا بالنار .

قوله تعالى ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾.

المـرء : الإنسان، والمرأة تأنيـث امـرئ ، يقـال : مَرْءٌ ومَـرْأَةٌ وامْـرُؤٌ وامْرَأَةٌ، قال تعالى ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ﴾[٢]، وقال ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾[٣].

وضمير الغائب في (منهم) عائد على العصبة ، والكلام في قوله تعالى (ما اكتسب) على حذف مضاف ، تقديره : لكل امرئ منهم جزاء ما اكتسب من

١- جامع البيان ٨٩/١٨ ، تفسير ابن كثير ٢٦١/٣ .

٢- من الآية ١٧٦ – والأخيرة – من سورة النساء .

٣- من الآية ٥ من سورة مريم ، وينظر : المفردات / ٤٦٦ مادة مرأ .

الإثم، وصيغة الافتعال من كسب تستعمل في الذنب، قال أبو حيان: اكتسب: مستعمل في المآثم ونحوها، لأنها تدل على اعتمال وقصد، فهو أبلغ في الترتيب ، وكسب مستعمل في الخير، لأن حصوله مغنٍ عن الدلالة على اعتمال فيه، وقد يستعمل كسب في الوجهين، أ.هـ[1].

وقال الراغب في تفسير قوله تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[2] : خص الكسب هاهنا بالصالح والاكتساب بالسيئ ، أ.هـ[3].

قلت : لعل ذلك بحسب الغالب ، وإلا فالاكتساب أيضاً يستعمل في الوجهين ، وقد ورد بهما القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى في الصالح : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾[4].

* والإثم : اسم للأفعال المبطئة عن الثواب[5]، وجمعه : آثام ، وتسمية الكذب إثماً لكون الكذب من جملة الإثم ، وذلك كتسمية الإنسان حيواناً لكونه من جملته[6].

والمراد بالإثم هنا ذلك الإفك الكاذب الذي رُميت به السيدة عائشة رضي الله عنها، والمعنى : لكل خائضٍ من الخائضين في الإفك عقوبة بقدر ما خاض فيه، لأن بعضهم تكلم، وبعضهم ضحك كالمعجب الراضي بما سمع، وبعضهم سكت ولم ينكر، وبعضهم أكثر وبعضهم أقل[7]، فلكلٍ جزاء ما اقترف من الإثم مختصاً به ،

١- البحر المحيط ٨/ ٢٠ .

٢- من الآية ٢٧٦ – والأخيرة – من سورة البقرة .

٣- المفردات / ٤٣١ مادة كسب .

٤- من الآية ٣٢ من سورة النساء .

٥- يعني في تناولها إبطاء عن الثواب .

٦- المفردات / ١٠ مادة إثم .

٧- البحر المحيط ٨ / ٢٠، روح المعاني ١٧ / ١٧١ بتصرف .

يجنيه بما جاء به .

* قوله تعالى ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

قرأ جمهور القراء " كِبْرَهُ " بكسر الكاف، وقرأ حميد الأعرج ويعقوب وغيرهما " كبره " بضم الكاف[1] ، ومرجع الضمير في " كبره " على الإفك.

أما بالكسر فمعناه البدء بالإفك ، كما قال الطبري وغيره[2]، وقيل معناه الإثم مأخوذ من الكبيرة ، كالخطء من الخطيئة .

وأما بالضم فمعناه معظم الإفك وأكثره كما قيل[3]، والمراد : والذي تولى أكبره أي معظمه .

وقراءة الكسر أولى بالصواب، وإن كان لقراءة الضم وجه جيد مفهوم في اللغة العربية كما قال العلماء[4].

ومعنى الآية على ذلك : والذي بَدَأَ بالخوض في الإفك، أو تحمل معظم الإفك وأكثره، أو تحمل إثم الإفك ووزره.

* وقوله تعالى ﴿ تَوَلَّى ﴾ فيه معنى الإقبال على الإفك بالكلية ، قال الراغب: قولهم (تولى) إذا عُدِّيَ بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال : وليت سمعي كذا ووليت عيني كذا ووليت وجهي كذا أقبلت به عليه، وإذا

١- النشر ٢/٢٤٨،الإتحاف/٤٠٩ ،البدور الزاهرة /٢٢٠ ،جامع البيان ١٨ /٨٧ .

٢- قال ابن جرير : " والذي تولى كبره منهم " يقول الذي بدأ بذلك ، أ.هـ جامع البيان ٨٧/٨ ، وقال الرازي : المراد من إضافة الكبر إليه أنه كان مبتدئاً بذلك القول ، أ.هـ التفسير الكبير ١٥٢/٢٣ ، وقال الراغب في المفردات / ٤٢١ مادة كبر : والذي تولى كبره : إشارة إلى من أوقع حديث الإفك ،أ.هـ .

٣- راجع : المحتسب ٢ / ١٤٧ ، البحر المحيط ٨/ ٢١ .

٤- راجع : معاني القرآن للفراء ٢ / ٢٤٧ ، تفسير القرطبي ١٢ / ١٣٣، فتح القدير ٤/١٢.

عُدِّيَ بعن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه، أ.هـ[1].

* والضمير في قوله تعالى " منهم " يعود إلى العصبة ، أي والذي تولى كبر الإفك من العصبة الجائين به .

* وقد اختلف العلماء في المراد باسم الموصول " الذي تولى كبره منهم " من هو ؟ فذهب أكثر العلماء – وعلى رأسهم أهل التفسير والحديث – إلى أن الذي تولى كبر الإفك هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول لعنه الله ، وهو المشهور الذي تؤيده الأحاديث الصحيحة والروايات الكثيرة .

قال الحافظ ابن حجر : هو عبد الله بن أبيّ ، وبه تظاهرت الروايات عن عائشة من قصة الإفك المطوَّلة [2] . وبه قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد[3] وغير واحد من المفسرين والمحدثين.

* وذهب بعض العلماء إلى أن الذي تولى كبر الإفك هو حسان بن ثابت رضي الله عنه ، واستدلوا على ذلك بما في صحيح البخاري عن مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبب وقال :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل [4].

قالت عائشة : ولكنك لست كذلك ، قلت : تَدَعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، فقالت : وأي عذاب أشد من العمى ، وقالت : وكان يرد عن رسول الله ﷺ[5].

١- المفردات / ٥٣٤ مادة ولى .

٢- فتح الباري ٨ / ٣٠٦ .

٣- جامع البيان ١٨ / ٨٩ ، تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦٤ .

٤- سبق شرح هذا البيت صفحة ١٥ .

٥- أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب سورة النور. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٨ / ٣٠٦.

قال الحافظ ابن كثير معلقاً على هذا القول :

وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل و مناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره، أ.هـ[1].

* والذي أميل إليه وأرجحه بل وأقطع به أن الذي تولى كبر الإفك هو رأس المنافقين اللعين عبد الله بن أبي بن سلول، ومما يدل على ذلك ويؤيده كثرة الروايات في ذلك، وأن القائلين به أكثر من القائلين بغيره، مع قيام الإجماع على أن ابن أبي هو الذي اختلق الإفك قبل أن يلوكه حسان أو غيره، ثم إنه لا يعقل أن يكون حسان بن ثابت شراً من عبد الله بن أبي رأس المنافقين، ولا ننسى أن مثل هذه الأفاعيل هي من أخلاق المنافقين ،الذين يحبون إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي، مع حرصهم الشديد على إحداث الوشاية ووقوع الفتنة بين المؤمنين، زد على ذلك ما وردت به الروايات من أن حسان قد اعتذر للسيدة عائشة رضي الله عنها بعد ذلك، وكانت عائشة تكرمه وتأذن له بالدخول عليها و تدعو له وتلقى له الوسادة وترجو له الجنة و تنهى عن إيذائه،ولو أنه الذي تولى كبر الإفك ما فعلت معه ذلك.

أمَّا ما استدل به المخالفون فغاية ما يُفهم منه هو اشتراك حسان في الخوض في حديث الإفك ، وليس فيه تصريح من السيدة عائشة رضي الله عنها بأن حسان هو الذي تولى كبره ، كما صرحت هي نفسها في الروايات الكثيرة الأخرى بأنه عبد الله بن أبي ، كما أن ما روى في شأن حسان لا يصل في وضوحه إلى ما وصلت إليه الروايات الأخرى ، التي تؤكد أن المراد هو عبد الله بن أبيّ .

* وهذا الذي رجَّحْتُه هو ما رجَّحه كثير من العلماء .

يقول الطبري رحمه الله : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال الذي

١- تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦٤ .

تولى كبره من عصبة الإفك كان عبد الله بن أبي ، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن الذي بدأ بذكر الإفك ، و كان يجمع أهله ويحدثهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفعله ذلك – على ما وصفت – كان توليه كبر ذلك الأمر، أ.هـ[1] .

وقد أكد الطبري قوله هذا بما رواه عن عائشة وابن عباس ومجاهد وابن زيد رضي الله عنهم أجمعين ، فعن عائشة قالت : كان الذي تولى كبره ، الذي يجمعهم في بيته عبد الله بن أبي بن سلول ، وعن ابن عباس قال : " الذين افتروا على عائشة: عبد الله بن أبي ، وهو الذي تولى كبره ، وحسان ومسطح وحمنة بنت جحش ، وعن مجاهد قال : والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو بدأه، وعن ابن زيد قال : أما الذي تولى كبره منهم فعبد الله بن أبي ابن سلول الخبيث ، هو الذي ابتدأ هذا الكلام ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها [2] .

* ومِن العلماء مَن ذهب إلى أن المراد بالذي تولى كبره عبد الله بن أبي وحسان ومسطح ، فإنهما شايعاه بالتصريح بـه ، على أن اسم الموصـول (الذي) بمعنى الذين ، كما صرح به بعض النحاة ، ومثلوا له بآيات من القرآن ، كقوله تعالى﴿ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ ﴾ [3] ، وقوله ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [4]، ويكون إفراد الموصول – الذي – حينئذ باعتبار الفوج أو الفريق أو نحو ذلك [5].

وهو قول غريب جداً ، وليس هناك ما يدل عليه ، قال الألوسي معلقاً عليه ،

١- جامع البيان ١٨ / ٨٩ .
٢- المرجع السابق .
٣- من الآية ٦٩ من سورة التوبة .
٤- أول الآية ٣٣ من سورة الزمر .
٥- أنوار التتريل ٢ / ٩٥ ، حاشية الشهاب ٧ / ٢٣ ، تفسير أبي السعود ٤ / ٧٤ .

ولا يخفي أن إرادة الجمع هنا لا تخلوا عن بُعد ، والذي أختاره إرادة الواحد وأن ذلك الواحد هو عدو الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ابن أبي ، وقد تظاهرت روايات كثيرة على ذلك ، والذاهبون إليه من المفسرين أكثر من الذاهبين منهم إلى غيره ، أ.هـ[1] .

• وقوله تعالى ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً ، والعذاب هو الإيجاع الشديد [2]، ووصفه بالعظيم دل على تفاقمه .

وعذاب الدنيا بأن صار ابن أبي مطروداً ، مشهوداً عليه بالنفاق ، وصار حسان أعمى ، أشل اليدين ، وقد ضربه صفوان بالسيف على رأسه كما سبق ذكره ، وصار مسطح مكفوف البصر[3] ، مع قيام الحد – ثمانين جلدة – على أرجح الأقوال ، كما سيأتي بيانه . أما عذاب الآخرة فما أعده الله لابن أبي يوم القيامة ، أمـا غيره من المؤمنين فقد كُفِرَ مـن الذنب بإقامة الـحد – على الأرجح – فلم يبق له عذاب في الآخرة .

• وفي التعبير بالموصول – الذي – وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى [4].

• والسؤال الذي يطرح نفسه في ختام الآية الكريمة مؤداه :

هل أقيم حد القذف على عصبة الإفك أو لا ؟

وللإجابة عن ذلك نقول وبالله التوفيق :

اختلف العلماء في ذلك على قولين . الأول : أنه ﷺ لم يحد أحداً من أصحاب الإفك، لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو بينة ، ولم يتعبده الله عز وجل أن

١- روح المعاني ١٧ / ١٧٣ .
٢- المفردات / ٣٢٧ مادة عذب .
٣- تفسير أبي السعود ٤ / ٧٤ ، روح المعاني ١٧ / ١٧١ .
٤- المرجعان السابقان .

يقيمها بإخباره عنها ، كما لم يتعبده بقتل المنافقين وقد أخبره الله تعالى بكفرهم .

وهذا قول فاسد ، مخالف لنص القرآن الكريم ، فإن الله تعالى يقول ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ (١).

يعني : إن لم يأتوا بالشهداء على صدق قولهم فاجلدوهم ....

الثاني : أنه ﷺ أقام حد القذف على عصبة الإفك ، وهو الصحيح الراجح .

ولكن اختلفوا هل حد الجميع أم استثنى بعضهم ؟

فقيل : أقيم الحد على الجميع ، أعني عبد الله وحسان ومسطح وحمنة .

وقيل : لم يحد مسطح ، لأنه لم يصرح بالقذف ، لكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح .

وقيل : لم يحد عبد الله بن أبي ، وهو المشهور بين العلماء .

قلت :جاءت الروايات المشهورة تثبت إقامة الحد على حسان ومسطح وحمنة، ولم يُسمع بحد لعبد الله بن أبي بن سلول ، فقد روى أصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أقام الحد على الذين تكلموا بالإفك ، دون ذكر لعبد الله بن أبي .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما نزل عذري قام النبي ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم ، وسماهم : حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثه وحمنة بنت جحش (٢).

١- الآية ٤ من سورة النور ، وينظر : البحر المحيط ٨ / ٢١ ، تفسير القرطبي ١٢ / ١٣٤ .

٢- أخرجه أبو داود في كتاب الحدود،باب في حد القذف، برقمي ٤٤٧٤، ٤٤٧٥، سننه٤/١٦٠ ، وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة النور ، برقم ٣١٩٢ ، سننه٥ / ١٢٥ ،

وأخرجه ابن ماجة في كتاب الحدود ، باب حد القذف ، برقم ٢٥٦٧ ، سننه ٢ / ٨٥٧ .

وفي ذلك قال شاعر من المسلمين :

لقد ذاق حسان الذي كان أهله   وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح

تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم   وسخطة ذي العرش الكريم فاترحوا(١)

وآذوا رسول الله فيها فجللوا   مخازي تبقى غمومها وفضحوا

وصبت عليهم محصدات كأنها   شآبيب قطر من ذرا المزن تسفح(٢)

ولم يذكر القائل في أبياته عبد الله بن أبيّ ، كما هو ظاهر .

قال القرطبي رحمه الله :

قال علماؤنا : وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذاباً عظيماً ، فلو حُدَّ في الدنيا لكان ذلك نقصاً من عذابه في الآخرة وتخفيفاً عنه ، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها وبكذب كل من رماها ، فقد حصلت فائدة الحد ، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف ، كما قال تعالى ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ (٣) .

وإنما حد هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف ، حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة .

ويُحتمل أن يقال : إنما ترك حد ابن أبي استئلافاً لقومه واحتراماً لابنه ، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك ، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عبادة ومن قومه ، كما في صحيح مسلم ، والله أعلم (٤).

١- أترحوا : من الترح وهو الحزن .

٢- محصدات : صفة لموصوف محذوف يعني سياطاً ، والشآبيب : الدفعات من المطر ، وتسفح : تسيل ، وهذه الآبيات ذكرها ابن هشام في السيرة النبوية ٣ / ١٩٦ ، ١٩٧ عن ابن إسحاق في ضرب حسان وصاحبيه ، وأوردها الألوسي في تفسيره ١٧ / ١٧٢ .

٣- آخر الآية ١٣ من سورة النور .

٤- تفسير القرطبي ١٢ / ١٣٤ .

قوله تعالى ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

بعد أن بَيَّنَ الله عز وجل حقيقة الإفك الذي افتراه المفترون على السيدة عائشة رضي الله عنها ، شرع الله تعالى بعد ذلك في تربية الجماعة المسلمة وتأديبها بأحسن الآداب ، وتوجيهها بأفضل التوجيهات ، وإرشادها إلى كيفية مواجهة الشائعات ، فجاءت الآيات بعد ذلك بتسعة آداب .

الأول : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ .... هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

الثاني : ﴿ لولا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَة شُهَدَاء ..... هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ .

الثالث : ﴿ وَلَوْلَا فَضلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .... عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

الرابع : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلسِنَتِكُمْ .... وَهُوَ عِندَ الله عَظِيمٌ ﴾ .

الخامس : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلتُم .... هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ .

السادس : ﴿ يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا ....والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

السابع : ﴿ إِنَّ الذينَ يُحِبُّونَ أَن تَشيعَ الفَاحِشَة ...... وَأَنتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

الثامن : ﴿ وَلَوْلَا فَضلِ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رءوف رَحِيمٌ ﴾ .

التاسع : ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتبِعُوا خُطوَات الشَّيْطَانِ ...... وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[١] .

* فقوله تعالى ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ . . . ﴾ الآية .

هذا هو الأدب الأول من جملة الآداب التي أَدَّبَ الله بها عباده ، وكان يلزمهم الإتيان بها ، وهو كذلك عتاب من الله تعالى وزجر لأهل الإيمان ، وتحريض على حسن الظن بالآخرين من المؤمنين .

والخطاب في الآية لكل مَن سمع الإفك مِن المؤمنين فسكت ولم يصدق ولم

١- الآيات ١٢ : ٢١ من سورة النور .

يكذب ولم يُنكر ، ويُحتمل دخول أهل الإفك في الخطاب .

و(لولا) للتحضيض ، بمعنى هلاّ[١] ، وهي هنا تحمل معنى التوبيخ والتقريع والمبالغة في معاتبتهم ، والمحضض عليه ظن الخير بالمؤمنين .

و(إذ) ظرف زمان لظن ، أي هلا ظننتم بأنفسكم خيراً حين سمعتم هذا الإفك

والظن : اسم لما يحصل عن أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد المتوهم ، والظن في كثير من الأمور مذموم[٢] .

وقد سبق في تفسير قوله تعالى ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أن الظن قريب من الحسبان ، لكن الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ، والظن أن يخطر النقيضان بباله فيغلّب أحدهما على الآخر[٣] .

* وتوسيط معمول الفعل ﴿ إذ سمعتموه ﴾[٤]. بين أداة التحضيض " لولا " وفعلها المحضض عليه –وهو ظن الخير – لتخصيص التحضيض بأول وقت السماع.

* وقصر التوبيخ واللوم على تأخير الإتيان بالمحضض عليه عن ذلك الوقت والتردد فيه:لإفادة أن عدم الإتيان به أصلاً في غاية ما يكون من القباحة والشناعة[٥].

والمراد : كان الواجب على أهل الإيمان إذ سمعوا ذلك الإفك أن يبادروا إلى تكذيبه في أول وقت سماعه من غير تردد ، وأن يحسنوا الظن بغيرهم من المؤمنين ، ولا يسارعوا إلى قول الزور ، وتهمة مَن عرفوا بالعفة والطهارة .

* وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة[٦]، وعدول عن الضمير إلى الاسم

١- أفاده الراغب في المفردات / ٤٥٨ مادة لولا .

٢- المفردات / ٣١٧ مادة ظن .

٣- المفردات / ١١٧ ، ١١٨ مادة حسب .

٤- يعني : وقت سماع الإفك .

٥- تفسير أبي السعود ٤ / ٧٤ ، روح المعاني ١٨ / ١٧٤ بتصرف .

٦- وذلك في قوله تعالى (وقالوا) وكان الأصل (وقلتم) .

الظاهر(١) . وفائدة ذلك المبالغة في توبيخهم بطريقة الالتفات .

والتصريح بصفة الإيمان للإشعار بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين ، والكف عن الطعن فيهم ، قال الزمخشري رحمه الله :

فإن قلتَ : هلا قيل : لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم؟ ، ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر؟ .

قلتُ : ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفاف ، وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن (٢).أ.هـ.

* ولعل ذكر المؤمنات هنا – مع أن كل حكم أو أمر أو نهي يشملهن مع المؤمنين – لأن النساء كثيراً ما يقعن في مثل هذا من غير احتراس ولا تحفظ.

* والمراد من قوله تعالى ﴿ بأنفسهم ﴾ أهل الإيمان ،لأنهم أهل ملة واحدة ، فالواجب أن يظن بعضهم ببعض خيراً ، وأن يقيسوا الأمر على أنفسهم ، فإن كان ذلك يبعد فيهم فهو في غيرهم أبعد ، فإن كان الإفك لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منهم بطريق الأولى والأحرى .

وقد قيل إن الآية نزلت في أبي أيوب – خالد بن زيد – الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما ، كما روى ابن إسحاق عن أبيه عن بعض رجال بني النجار ، أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال : بلى وذلك الكذب ، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك(٣) .

١- وذلك في قوله تعالى (ظن المؤمنون والمؤمنات) وكان الأصل (وظننتم) .

٢- الكشاف ٣ / ٢١٢ ، ٢١٣ .

٣- أخرجه الطبري في الجامع ١٨ / ٩٦ ، وأورده ابن كثير في تفسيره ٣ / ٢٦٤ ، وابن هشام في السيرة ٣ / ١٩٢ .

وفي روايـــة أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب : ألا ترين ما يُقال ؟ فقالت:لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً ؟ قال :لا.

قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ ، فعائشة خير مني ، وصفوان خير منك(١) . قال ابن المنيّر رحمه الله معلقاً على هذا الخبر :

ولقد ألهمت بنور الإيمان إلى هذا السر الذي انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس ، فإنها نزّلت زوجها منزلة صفوان ، ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة ، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى ، رضي الله عنهم أجمعين .أ.هـ(٢) .

* فإن قيل : لم عبر سبحانه وتعالى عن الآخرين بأنهم نفس الإنسان ؟.

قلنا : فيه وجهان .

الأول : تنزيلاً لنفس المؤمن منزلة نفس أخيه ، فإذا كان المؤمن لا يظن في نفسه إلا الخير ، فكذلك يجب أن يكون ظنه في أخيه المؤمن ، فيقيس الأمر على نفسه ، كما وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته .

الثاني : أن يكون التعبير عن الآخرين بالنفس بناء على أن المؤمنين جميعاً بمنزلة نفس واحدة ، والمراد أن يظن بعضهم ببعض خيراً ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (٣)، يعني لا يلمز(٤) بعضكم بعضاً ، لأن الإنسان لا يلمز نفسه ، وكذلك قوله تعالى ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٥)يعني : ليسلم بعضكم على بعض (٦) .

١- أوردها الزمخشري في الكشاف ٣ / ٢١٢ .

٢- الانتصاف ، على هامش الكشاف في الموضع السابق .

٣- من الآية ١١ من سورة الحجرات .

٤- واللمز بمعنى العيب ، أي : لا يعيب .

٥- من الآية ٦١ من سورة النور .

٦- جامع البيان ١٨ / ٦٩ ، مفاتيح الغيب ٣ / ١٥٤ ، البحر المحيط ٨ / ٢٢ .

فلمَّا كان أهل الإيمان كنفس واحدة عبَّر عن الآخرين بأنهم نفس الإنسان ، بناء على أنهم جميعاً كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص ،

مصداقاً لقوله ﷺ " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[١].

وقوله ﷺ : " المؤمن للمؤمن كالبنيان . يشد بعضه بعضاً ، وشبك بين أصابعه "[٢].

* وقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ إرشاد لفعل اللسان بعد الإرشاد إلى فعل القلب ، فبعد أن بيَّن الله تعالى ما يجب على الإنسان أن يعتقده بقلبه عند سماع الإفك وهو ظن الخير بالمؤمنين ، بيَّن ما يجب عليه أن يفعله بلسانه ، وهو الإنكار والتكذيب ، فهو إذاً من باب الإنكار الظاهري بعد الإنكار الباطني ، أو الإنكار اللساني بعد الإنكار القلبي ، كما هو الحال في تغيير المنكر .

ومعنى ﴿ وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أي قال المؤمنون والمؤمنات بألسنتهم : هذا الذي سمعناه من القول الذي رميت به عائشة من الفاحشة كذب ظاهر وإثم واضح، وافتراء مكشوف لكل عاقل فكر فيه .

ووصف الإفك بـ " مبين " للمبالغة في وضوح بطلانه وكذبه ، فكأنه لشدة ظهور كذبه ووضوح بطلانه صار يبين غيره [٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : ﴿ وقالوا ﴾ أي بألسنتهم ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾

١- أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ، برقم ٢٥٨٦ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٨ / ٣٨٤ .

٢- متفق عليه ، أخرجه البخاري في غير موضع ، منها في كتاب الأدب ، باب تعاون المؤمنين ، برقم ٢٤٤٦ وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين ، برقم ٢٥٨٥ . صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٠ / ٤٦٤ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٨ / ٤٨٣ .

٣- وبالفعل فإن هذا الإفك كما هو واضح في نفسه فقد بيَّن جديداً من كيد الكائدين .

أي كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن ما وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة على راحلة صفوان في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد بل كان هذا يكون – لو قُدِّر – خفية مستوراً ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به عائشة رضي الله عنها هو الكذب البحت والقول الزور والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة ، أ.هـ[١]

* ثم انتقلت الآيات إلى تقرير أدب آخر ، يتمثل في طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي ، فقال تعالى في توجيهاته الربانية :

﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ . وهذه الآية الكريمة رد على الحكم الأول ، وإحالة على الآية السابقة في قذف المحصنات ، أعني قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ ﴾[٢] .

حيث طالب الله تعالى القاذف أن يأتي بأربعة شهداء ، وإلا كان كاذباً وأقيم عليه الحد – ثمانين جلدة – وردت شهادته وحكم عليه بالفسق .

وعصبة الإفك استحقوا عقوبة القذف والوصف بالكذب ، لعدم إتيانهم بالبينة – الشهداء الأربعة – على صدقهم فيما رموا به السيدة عائشة رضي الله عنها و(لولا) للتحضيض ، بمعنى هلا كالسابقة ، والحض هنا على التثبت في القول .

والآية الكريمة إما من تمام القول المحضض عليه سابقاً ، ومن جملة ما يقوله

١- تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦٥ .

٢- الآية ٤ من سورة النور .

المؤمنون ، مسوق لتوبيخ السامعين على ترك إلزام الخائضين أن يأتوا بالبينة على ما قالوا ، والمعنى : قال المؤمنون : هذا إفك مبين وقالوا هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على صحة ما قالوا .

وإما كلام مبتدأ ، مسوق من جهتِه تعالى تقريراً لكون ذلك إفكاً ، واحتجاجاً على كذبهم بكون ما قالوه قولاً لا يساعده الدليل أصلاً [١] .

وأياً ما كان فالآية توبيخ وتعنيف للفريقين ، أعني الخائضين والذين سمعوا الإفك ولم يجدُوا في دفعه وإنكاره ، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع ، من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتنكيل به[٢] ، إذا قذف امرأة محصنة من نساء المسلمين ، فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمه رسول الله ﷺ وحبيبة حبيب الله عز وجل[٣] .

وقد جعلت الآية الكريمة الحد الفاصل بين القذف الصادق والقذف الكاذب هو الإتيان بالشهداء الأربعة أو عدم ذلك ، فإن عدموا انتفى القذف وحُدَّ القاذف، ولذلك قال تعالى ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ،

الفاء الأولى للإفصاح ، والثانية هي الواقعة في جواب الشرط .

والتعبير بالاسم الظاهر – الشهداء – بدلاً من الضمير [٤] لزيادة التقرير .

واسم الإشارة " أولئك " يعود على الخائضين ، وما فيه من معنى البُعْد للإيذان ببُعْد منزلتهم في الفساد وغلوهم في الشر وبلوغهم أعلى الدرجات في الكذب والافتراء [٥] .

١- تفسير أبي السعود ٤ / ٧٥ ، روح المعاني ١٧ / ١٧٤ ، ١٧٥ بتصرف .

٢- بإقامة الحد – ثمانين جلدة – ورد الشهادة والحكم عليه بالفسق .

٣- الكشاف ٣ / ٢١٣ .

٤- حيث كان الظاهر : فإن لم يأتوا بهم .

٥- تفسير أبي السعود ٤ / ٧٥ ، روح المعاني ١٧ / ١٧٥ بتصرف .

والمراد بقوله (عند الله) أي في حكمه وشرعه ، أي المحكوم عليهم شرعاً بالكذب ، حيث لم يطابق خبرهم في الشرع الواقع ، لأن الله تعالى شرع ضرورة الإتيان بأربعة شهداء يشهدون بصدق القاذف .

وذهب بعض العلماء إلى أن معنى " عند الله " أي في علم الله هم الكاذبون، حيث لم يطابق خبرهم الواقع في نفس الأمر، لأن الآية نزلت في خصوص السيدة عائشة رضي الله عنها، وخبر أهل الإفك فيها غير مطابق للواقع في حقيقة الأمر في علم الله تعالى .

وتُعقِّب الرأي الثاني بأن خصوص السبب لا يُنافى عموم الحكم ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكون الآية نزلت فيمن قذف عائشة لا يُنافى تعميم الحكم على كل قاذف،ثم إن ظاهر التقييد بالظرف – عند الله –يأبى ذلك[١] .

والرأي الأول القائل بأن المراد بـ " عند الله " أي في حكمه وشرعه ، أرجح . ولذلك اكتفى به بعض المفسرين.

وردَّ المعنى الثاني ، لئلا يلزم المحال .ومما يدل على رجحان الأول أن الأحكام الدنيوية مترتبة على الظاهر ، لا على علم الله تعالى ، وقد قام الإجماع على أن جميع الأحكام الدنيوية مبينة على ظواهر الناس ، أما بواطنهم فموكولة إلى علام الغيوب عز وجل .

قال القرطبي : أجمع العلماء على أن أحكام الدنيا على الظاهر ، وأن السرائر إلى الله عز وجل .أ.هـ[٢] .

وقال ابن العربي : " عند الله " يريد في حكمه لا في علمه ، وهو إنما رتَّب الحدود على حكمه تعالى الذي شرعه في الدنيا ، لا على مقتضى علمه الذي تعلق

١- روح المعاني ١٧ / ١٧٥ بتصرف .

٢- تفسير القرطبي ٢ / ٢٠٣ .

بالأشياء على ما هي عليه ، وإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة ،أ.هـ[١] .

ولا يستبعد أن يكون القاذف صادقاً في قذفه ، لكنه لم يستطع إقامة الدليل على صدق كلامه ، حينئذٍ يحكم بكذبه شرعاً وينكل به جلداً وتفسيقاً ورداً لشهادته ، لأن الله رتب الحدود على الظاهر كما سبق بيانه .

وضمير الفصل (هم) أفاد الحصر والاختصاص ، أريد به المبالغة في وصفهم بالكذب ، كأن الكذب انحصر في هؤلاء ولم يتجاوزهم إلى غيرهم ، أو كأن هؤلاء اختصوا بالكذب دون من سواهم ، والمعنى : فأولئك هم الكاملون في الكذب ، المشهود عليهم بذلك ، المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم[٢] .

ثم جاءت الآيات بعد ذلك لتسجل جانباً من فضل الله ورحمته على هذه الجماعة المسلمة ، ولولا ذلك الفضل وتلك الرحمة لمسهم جميعاً العذاب العظيم في الدنيا والآخرة بسبب أعمالهم ، فقال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ولولا هذه – كما يقول علماء اللغة – هي الامتناعية ، فهي حرف امتناع لوجود ، أي امتناع الشيء لوجود غيره ، أو امتناع الجواب لوجود الشرط ، وفي الآية هنا امتنع جوابها ، وهو أن يمسهم العذاب ، لوجود فضل الله تعالى ورحمته ، والمعنى : لولا أني قضيت بالتفضل عليكم والرحمة لكم في الدارين ، بالإمهال والتأخير للتوبة في الدنيا ، والعفو والمغفرة في الآخرة ، لعاجلتكم بالعقاب العظيم ، بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك .

والخطاب في الآية للخائضين في حديث الإفك من المؤمنين ، كحسان ومسطح

١- أحكام القرآن ٣ / ٥٦٥ .

٢- تفسير أبي السعود ٤ / ٧٥ بتصرف .

وحمنة ، وأما من خاض فيه من المنافقين ، كعبد الله بن أبي وأمثاله فلا يشملهم الخطاب حيث إنهم لا حظ لهم في الآخرة من رحمة الله تعالى ، وقيل : لا مانع أن يشملهم الخطاب ، لأن عذابهم في الآخرة أعظم مما توعدهم الله به هنا ، وهو الخلود في النار[١] ، وصدق الله العظيم القائل ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[٢] .

ولكني أراه قولاً بعيداً .

وقيل : الخطاب للخائضين والسامعين معاً ، وفيه زجر عظيم لهم .

والقول الأول أولى بالقبول .

وفي الآية لف ونشر مرتباً ، ففضله تعالى في الدنيا ، ورحمته في الآخرة ، ويجوز جعل كليهما لكليهما ، أي يجوز أن يتعلق (في الدنيا والآخرة) بكلٍ من فضل الله تعالى ورحمته ، والمعنى : لولا فضل الله عليكم ورحمته في كلا الدارين لمسكم عاجلاً عذاب عظيم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك[٣].

و (مسكم) معناه أصاب جلودكم إصابة بالغة ، كما يمس الحديد المحمي الجسم الحي فيؤلمه ، قال الراغب : المس كاللمس ، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد ، والمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس والمس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى ،أ.هـ[٤] .

والإفاضة : الأخذ في الحديث ، يقال : أفاض القوم في الحديث ،أي أخذوا فيه، وأفاض – في الحديث – واندفع وخاض .. كلها بمعنى واحد[٥] .

١- ينظر : حاشية الشهاب ٧ / ٢٥ .

٢- الآية ١٤٥ من سورة النساء .

٣- ينظر : حاشية الشهاب ٧ / ٢٥ ، روح المعاني ١٧ / ١٧٥ .

٤- المفردات / ٤٦٧ مادة مسس .

٥- الكشاف ٣ / ٢١٣ ، تفسير القرطبي ١٢ / ١٣٥ .

ولفظ الإفاضة يدل على أمور منها : السرعة والتساهل والكثرة والانتشار ، فالتعبير بالإفاضة جاء على طريق الاستعارة ، من إفاضة الماء في الإناء ، قال الراغب: فاض الماء إذا سال منصباً ، وأفاض إناءه إذا ملأه حتى أساله، ومنه : فاض صدره بالسر أي سال ، ورجل فياض أي سخي ، ومنه استعير أفاضوا في الحديث إذا خاضوا فيه ، قال تعالى ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ ، وحديث مستفيض منتشر ، والفيض : الماء الكثير ، يقال : أعطاه غيضاً من فيض . أي قليلاً من كثير، وقوله :﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾[1] أي دفعتم منها بكثرة ، تشبيهاً بفيض الماء، أ.هـ[2].

ومعنى (أفضتم فيه) على ذلك مجاز بالاستعارة ، إذ شبه حديثهم الذي خاضوا فيه غير محترسين ، بالماء الذي يسيل فلا يضبط ، وكأن الحديث يسيل سيلاً زائداً عن حده وبغير غاية[3]، حيث كانوا لا يتحرجون من ذكر الإفك ، ولا يتوقفون عن التحدث به ، بل أشاعوه فيما بينهم في غاية السرعة والسهولة والانتشار .

و (ما) اسم موصول بمعنى الذي ، ويجوز أن تكون مصدرية ، والضمير في (فيه) يعود على الإفك ، والمعنى : لمسكم بسبب الذي أفضتم فيه وهو الإفك ، أو لمسكم بسبب إفاضتكم وخوضكم في الإفك[4] .

* وفائدة الإبهام في قوله تعالى ﴿ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ دون التصريح بالإفك لتهويل أمر هذا الإفك واستهجان ذكره[5] .

١- من الآية ١٩٨ من سورة البقرة .
٢- المفردات / ٣٨٧ مادة فيض .
٣- زهرة التفاسير ١٠ / ٥١٦٠ .
٤- حاشية الشهاب ٣ / ٢١٢ .
٥- المرجع السابق ، روح المعاني ١٧ / ١٧٥ بتصرف .

* والتنكير والتنوين في (عذاب) للتعظيم والتنويع ، ووصفه بالعظم لشدة تفاقمه وشناعته ، فهو عذاب لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه وتعالى .

* وتتواصل هذه الآية والتي تليها بظرف الزمان (إذا) ، حيث يستهل به الحق سبحانه وتعالى الآية الخامسة ، فيقول عز وجل :﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

* و (إذ) ظرف لقوله تعالى (لمسكم) ، ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله تعالى (أفضتم) ، والأول أظهر ، والضمير في (تلقونه) يعود على الإفك والمعنى : لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك ، وأخذ بعضكم إياه من بعض[1] ، ذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول : بلغني كذا وكذا .... فيتلقونه تلقياً يلقيه بعضهم إلى بعض .

وقوله تعالى " تلقونه " أصله تتلقونه ، بتاءين ، فحذفت إحداهما تخفيفاً ، وقراءة جمهور القراء ﴿ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ بتاء واحدة وإظهار الذال دون إدغام، من التلقي، ومعناها : يرويه بعضكم عن بعض .

وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود " تتلقونه " بتاءين[2]– على الأصل – وهي كقراءة الجمهور ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (إذ تلقونه) بإدغام الذال في التاء ، وقرأ ابن كثير (إذ تلقونه) بإظهار الذال وتشديد التاء[3] وقرأت عائشة – ووافقها ابن عباس – (تلقونه) ، بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ، من الولق

١- روح المعاني ١٧ / ١٧٦ .
٢- وهي قراءة شاذة ، مختصر في شواذ القرآن / ١٠٢ ، جامع البيان ١٨ / ٩٧ .
٣- وهما قراءتان سبعيتان ، قال ابن خالويه : " إذ تلقونه " يقرأ بالإدغام والإظهار ، فالحجة لمن أدغم : مقاربة الحرفين في المخرج ، والحجة لمن أظهر : أنه أتى به على الأصل ، إلا ما روى عن ابن كثير من تشديد التاء وإظهار الذال ، وليس ذلك بمختار في النحو ، لجمعه بين ساكنين، ينظر : الحجة في القراءات السبع / ١٦٠ ، تفسير القرطبي ١٢ / ١٣٦ .

بمعنى الكذب [1]، أخرج الطبري بسنده عن ابن أبي ملكية عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها كانت تقرأ هذه الآية (إذ تلقونه بألسنتكم) تقول : إنما هو ولق الكذب ، وتقول : إنما كانوا يلقون الكذب .

قال ابن أبي ملكية : وهي أعلم بما فيها أنزلت .

قال الطبري : قال أبو جعفر : وكأن عائشة وجهت معنى ذلك بقراءتها (تلقونه) بكسر اللام وتخفيف القاف ، إلى إذ تستمرون في كذبكم عليها ، وإفككم بألسنتكم ، كما يقال : ولق فلان في السير فهو يلق : إذا استمر فيه أ.هـ [2] .

وقيل : (تلقونه) من ولق الحديث : أنشأه واخترعه ، وقيل : من ولق الكلام: دبره ، وقيل : من الولق الذي هو الإسراع بالشيء بعد الشيء ، كعدد في أثر عدد ، وكلام في أثر كلام ، ومنه : ناقة ولقى أي سريعة [3] .

قال ابن جني : (تلقونه) تسرعون فيه وتخفون إليه ، قال الراجز :

* جاءت به عنس من الشام تلق *

أي تخف وتسرع ، وأصله : تلقون فيه أو إليه ، فحذف حرف الجر ، وأوصل الفعل إلى المفعول ، كقوله تعالى ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا ﴾ [4] أي من قومه ، أ.هـ [5] .

وقال ابن عطية : وعندي أنه أراد " إذ تلقون فيه " ، فحذف حرف الجر ،

١- وهي قراءة شاذة ، المحتسب ٢ / ١٤٧ ، مختصر في شواذ القرآن / ١٠٢ .

٢- جامع البيان ١٨ / ٩٨ .

٣- روح المعاني ١٧ / ١٧٦ ، حاشية الشهاب ٧ / ٢٥ .

٤- أول الآية ١٥٥ من سورة الأعراف .

٥- المحتسب ٢ / ١٤٨ .

ووصل بالضمير [1] .

وقال الراغب : الولق : الإسراع ، ويقال : ولق الرجل يلق : كذب ، وقرئ "إذ تلقونه " أي تسرعون الكذب ، من قولهم : جاءت الإبل تلق ، وناقة ولقى سريعة ، أ.هـ [2] .

وقرأ ابن السميفع " تلقونه " – من الإلقاء – بضم التاء والقاف وسكون اللام ، من ألقيت ، مضارع ألقى ، وعنه " تلقونه " بفتح التاء والقاف وسكون اللام ، مضارع لقي [3] .

وعن سفيان بن عيينه أنه قال : سمعت أمي تقرأ " إذ تثقفونه " [4]، من ثقفت الشيء إذا طلبته فأدركته ، أي تتصيدون الكلام في الإفك من هنا وهناك ، وفي رواية عنه " تقفونه " [5]، من قفاه إذا تبعه ، أي تتبعونه وتجمعونه وتحطبونه ، قال سفيان : وكان أبوها – يعني جده لأمه – يقرأها بحرف عبد الله بن مسعود [6] .

وقرأ زيد بن أسلم وأبو جعفر " تألقونه " بفتح التاء وهمزة ساكنة بعدها لام ساكنة من الألق وهو الكذب [7] .

وقرأ يعقوب في رواية المازني عنه " تيلقونه " بتاء فوقانية مكسورة بعدها ياء ولام مفتوحة ، كأنه مضارع ولق بكسر اللام ، كما قالوا تيجل مضارع وجل [8] .

١- المحرر الوجيز ١١ / ٢٨٢ .

٢- المفردات / ٥٣٢ ، ٥٣٣ مادة ولق .

٣- وهما قراءتان شاذتان ، المحتسب ٢ / ١٤٧ ، روح المعاني ١٧ / ١٧٦ .

٨- تثقفونه – بتشديد القاف وتخفيفها – وهي قراءة شاذة .

٥- وهي قراءة شاذة كسابقتها .

٦- المحتسب ٢ / ١٤٧ ، مختصر شواذ القرآن / ١٠٢ .

٧- وهي قراءة شاذة ، مختصر شواذ القرآن /١٠٢ ، روح المعاني ١٧٦/١٧ .

٨- وهي كسابقتها قراءة شاذة ، المرجعان السابقان .

وقرئ بغير ذلك [1] ، وفيما ذكر غنية .

وقراءة الجمهور " تلقونه " هي الأولى بالإتباع ، قال الطبري : لا أستجيز غيرها ، لإجماع الحجة من القراء عليها[2].

ومعناها : يأخذه بعضكم من بعض ، يقال : تلقى القول وتلقفه وتلقنه بمعنى واحد ، فالتلقي والتلقف والتلقن معانٍ متقاربة ، إلا أن في التلقي معنى الاستقبال والمقابلة والمواجهة ، وفي التلقف معنى الخطف والأخذ بسرعة والاحتيال ، وفي التلقن معنى الحذق والمهارة ، على ما قال أهل العلم[3] .

وقوله تعالى ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ معناه أنه مجرد قول باللسان ، مختصاً بالأفواه ، من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب ، حيث إنه لم يصدر عن يقين جازم بالجنان ، ولم يستند إلى أدنى أثارة من علم ، كقوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [4]، وقوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [5]،

وفائدة ذكر الأفواه مع أن القول لا يكون إلا بها ؟

للتأكيد على أن هذا القول لم يكن عبارة عن علم قام بالقلب ، وإنما هو مجرد قول باللسان ، فهذا الإفك ليس محله إلا الأفواه .

قال الزمخشري : فإن قلتَ : ما معنى قوله " بأفواهكم " والقول لا يكون إلا بالفم ؟ ، قلتُ : معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ، فيترجم عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم ، ويدور في أفواهكم من

١- قال ابن خالويه في مختصر شواذ القرآن /١٠٢ : " ففي هذا الحرف عشر قراءات " أ.هـ.

٢- جامع البيان ٩٨/١٨ .

٣- حاشية الشهاب ٢٥/٧ ، تفسير أبي السعود ٧٥/٤ ، روح المعاني ١٧٦/١٧ .

٤- من الآية ١٦٧ من سورة آل عمران .

٥- من الآية ١١ من سورة الفتح .

غير ترجمة عن علم به في القلب ،أ.هـ.[1]

• ويحتمل أن ذكر الأفواه للمبالغة و التأكيد ، كقوله تعالى ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [2] ، و قوله تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾[3] ونحوه.

و يجوز أن يكون ذكر الأفواه للتوبيخ ،كقولك : أتقول ذلك بملء فيك ،أو قاله بملء فيه ، ونحو ذلك.

• والتنكير في قوله تعالى "علم" يفيد التقليل و التحقير ، و المعنى : ليس لكم فيما تتقولونه بألسنتكم أي علم ، ولو كان قليلا حقيرا.

• وقوله تعالى ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، أي تظنونه سهلا يسيرا ، لا تبعة له ، ولا مؤاخذة عليه ولا عقوبة ، بينما الحال على خلاف ذلك فالحال أنه عند الله عز و جل أمر عظيم ،لا يقادر قدره في الوزر واستجرار العذاب.

• والضمير في " تحسبونه " عائد على حديث الإفك والخوض فيه .

• والهين : السهل ، يقال : هان الأمر على فلان ،بمعنى سهل ، و منه قوله تعالى ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾[4] ، و قوله تعالى ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [5].

• والواو في قوله تعالى " وهو عند الله " حالية ، أي والحال أنه عند الله ...، و المراد بـ" عند الله " أي في حكمه وشرعه .

والجملتان الفعليتان – أعني قوله تعالى ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وتحسبونه هيناً ﴾ – معطوفتان على جملة (تلقونه بألسنتكم) ، داخلتان

١- الكشاف ٢١٤/٣ .

٢- من الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

٣- أول الآية ٤ من سورة الأحزاب .

٤- من الآيتين ٩ ،٢١ من سورة مريم .

٥- من الآية ٢٧ من سورة الروم ، وينظر : المفردات /٥٤٨ مادة هان .

معها في حيز (إذ) التي هي ظرف لقوله تعالى ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فيكون الحق تبارك وتعالى قد وصفهم بثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها .

أحدها : تلقي الإفك بألسنتهم ، وتداوله فيما بينهم ، وقبوله والرضى به

ثانيها : التكلم بما لا علم لهم به ، حيث كانوا يتحدثون به دون أدنى علم يؤيده .

ثالثها : استصغارهم ذلك وهو عظيمة من العظائم ، وحسبانهم ذلك سهلاً هيناً وهو عند الله على نقيض ذلك[1] .

ويمضي السياق في تأديب جماعة المسلمين بجملة من الآداب النافعة ، والتي يجب عليهم أن يتخلقوا بها .

فبعد أن وجَّههم الله تبارك وتعالى توجيهاً قلبياً عند سماع الإفك ، وهو حسن الظن ، وجَّههم مرة أخرى توجيهاً قولياً ، يقولونه بألسنتهم بمجرد سماع الإفك .

فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ .

تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير ، أي إذا ذكر مالا يليق من القول في شأن الخيرة ، فالواجب أولاً أن يظن بهم خيراً ، فإن علق في نفس الإنسان من ذلك وسوسة وخيالاً ، فلا ينبغي له أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال في الحديث ، (إن الله تعالى تجاوز لأمتي عمَّا حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)[2] .

١- الكشاف ٢١٤/٣ ، مفاتيح الغيب ١٥٦/٢٣ ، روح المعاني ١٧٧/١٧ بتصرف .

٢- تفسير ابن كثير ٢٦٦/٣ بتصرف ، والحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الطلاق ، باب إذا قال لامرأته وهو مكره : هذه أختي فلا شي عليه ، حديث رقم ٥٢٦٩ ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس ، برقم ١٢٧ .
صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٣٠٠/٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٤٢٣/١ .

والخطاب في الآية لمن سمع الإفك ولم ينكره ، والجميع من تعاطاه .

وإيثار صيغة الخطاب – في قوله تعالى " ولولا إذ سمعتموه " – للمبالغة في التوبيخ والعتاب ، المستفاد من " لولا " التحضيضية ، كما مر في الآية الأولى.

والواو واصلة الجملتين ، فهو امتداد لتوبيخ الخائضين والسامعين دون إنكار ولـولا للتحضيض بمعنى هلا ، كما سبق ، والمراد الزجر والتوبيخ ، والمعنى : هلا إذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيباً للخائضين فيه ...... الخ .

و (إذ) ظرف لـ " قلتم " وتوسيط معمول الفعل المحضض عليه – وهو (إذ سمعتموه) – بين أداة التحضيض – لـولا – والمحضض عليه (قلتم ما يكون لنا ... الخ) لتخصيص التحضيض بأول وقت السماع ، على نحو ما مر في قوله تعالى (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون .....) الآية ، والمعنى : كان الواجب عليكم في أول لحظة سمعتم فيها هذا الإفك أن تقولوا ذلك ، فلما كان ذكر الوقت أهم تقدم معمول الفعل المحضض عليه على الفعل نفسه[1] .

وعلى هذا فإن معنى قوله تعالى (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) أي ما ينبغي ولا يصح ولا يحل لنا بحال من الأحوال أن نتكلم بهذا ، وحاصله نفي وجود التكلم به ، فقوله " ما يكون " نفي للكينونة ، وهي أبلغ وأشد في مجال النفي من النفي المؤكد ، فقولك مثلاً : ما يكون لي أن أقول كذا .. أبلغ وأشد في نفي القول من قولك : ليس لي أن أقول كذا ... ، ولذلك أجاب عيسى عليه السلام على سؤال الله تبارك وتعالى له : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) ؟ .

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾[2].

والإشارة في قوله تعالى (هذا) – في الموضعين – إلى القول المخصوص الذي

١- الكشاف ٢١٥/٣ بتصرف .

٢- من الآية ١١٦ من سورة المائدة .

سمعوه باعتبار شخصه ، ويصح أن تكون الإشارة إلى نوعه ، فإن قذف آحاد الناس محرم شرعاً ، فضلاً عن قذف الصديقة بنت الصديق ، حرمة رسول الله ﷺ [1].

وقوله تعالى ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ من جملة ما ينبغي أن يقولوه ، يعني : هلا قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، وقلتم أيضاً : سبحانك هذا بهتان عظيم

وذلك مثل ما قال سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فقد روى أن سعداً لما سمع قول أهل الإفك في عائشة قال : ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] ، وروى عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال نفس القول لزوجته حين حدثته بخبر الإفك.[3]

و(سبحان) اسم فعل مضارع معناه : أتعجب ، والمراد منه التعجب من عظم الأمر ، ومعنى التعجب في التسبيح أصلاً أن يسبح المؤمن ربه عز وجل عند رؤية عجائب مخلوقاته وبديع صنعه ، تنزيهاً له عن الشركاء ، ثم كثر حتى استعمل في كل ما يتعجب منه ، والمراد هنا تنزيه سبحانه وتعالى عن أن تكون امرأة نبيه المختار وحرمته فاجرة متهمه[4] ، ومثله في استعماله للتعجب (لا إله إلا الله) [5] .

والبهتان : الكذب الذي يُبهت النفوس ويُدهش العقول ويُحيِّر السامعين ، لفظاعته وغرابته وبُعده عن كل معقول ، وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه ، بخلاف الغيبة فمعناها أن يقال في الإنسان ما فيه ، والإفك : أن يقال في الإنسان ما نقل عنه .

وقوله تعالى (هذا بهتان عظيم) يعني كذب يبهت ويحير سامعه من عِظَمِهِ ،

١- أنوار التتريل ٢/ ٩٦ ، روح المعاني ١٧٧/١٧ .

٢- الدر المنثور ١٥٣/٦ ، روح المعاني ١٧٨/١٧ .

٣- تفسير الخازن ٢٨٨/٣ .

٤- الكشاف ٢١٥/٣ بتصرف .

٥- روح المعاني ١٧٨/١٧ .

(عظيم) لا يقدر قدره ، لعظمة المبهوت عليه ، فإن حقارة الذنوب وعظمها كثيراً ما يكونان باعتبار متعلقاتها [1].

فإن قيل : لماذا أوجب عليهم أن يقولوا (هذا بهتان عظيم) ، مع أنهم ما كانوا عالمين بكونه كذباً قطعاً ؟ أجيب عنه من وجهين :

الأول : أنهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتاناً ، لأن زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة ، كما سبق بيانه .

الثاني : أنهم لما جزموا أنهم ما كانوا ظانّين له بالقلب ، كان إخبارهم عن ذلك الجزم كذباً ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[2]

فإن قيل : ما الفرق بين هذه الآية ونظيرها السابقة ؟

قلنا : في الآية الأولى – لولا إذ سمعتموه ظن ... الآية – إجمال للقاعدة الكلية في باب القذف ، بالنهي عن الخوض في أعراض المؤمنين بلا دليل ، فهي تفيد معنى العموم ، أما الآية الثانية فإنها تفيد الخصوص ، وأن القذف في حق أزواج الأنبياء بهتان عظيم لا يقدر قدره ، والله أعلم .

وبعد أن وجه الله المؤمنين إلى ما يجب عليهم من حسن الظن بقلوبهم ، ونفي الإفك بأفواههم ، شرع عز وجل في وعظهم وعظاً جميلاً ، يحمل في طياته تحذيراً شديداً ، حتى لا يعودوا لمثله أبداً ، فقال تعالى :

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

والخطاب في الآية لكل من خاض في حديث الإفك ومن سمعه فلم ينكره ، ويدخل فيه سائر المؤمنين ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومعنى الوعظ : التذكير بما يُليِّن القلب من الثواب والعقاب .

١- روح المعاني ١٧٨/١٧، أنوار التتريل ٢/ ٩٦ ، تفسير أبي السعود ٧٦/٤ .

٢- آخر الآية الأولى من سورة المنافقون ، وينظر : التفسير الكبير ١٥٧/٢٣ .

تعصوه) مثلاً ، وهذا من باب : إن كنت أباً لك فلم لا تحسن إليّ ، فيذكرهم بالإيمان الذي هو العلة في الترك والتهييج ، لإبرازه في معرض الشك ، وفيه طرف من التوبيخ والتقريع[١] .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المعتزلة – ومَن وافقهم – استدلوا بهذه الآية على أن القذف ذنب يخرج صاحبه من الإيمان ، حيث قالوا : إن وجود الإيمان مشروط بعدم القذف ، فدل وجود القذف على عدم وجود الإيمان . وهذا مذهب باطل ، ورأى فاسد مردود ومعارض بآيات الإفك نفسها ، حيث ابتدأت الآيات بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾، أي منكم أيها المؤمنون ، فدل ذلك على أن القذف – وإن كان من الكبائر – لا يخرج صاحبه عن دائرة الإيمان[٢] .

فإن قيل : هل يجوز أن يُسمى الله تعالى واعظاً ، لقولـه ﴿ يعظكـم الله ﴾ ؟ أجيب عنه بأن الأظهر أنه لا يجوز ذلك ، كما لا يجوز أن يسـمى معلمـاً لقولـه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾[٣] .

وبعد أن حذر الله تعالى كل من له بالإفك صلة ، امتن عليهم بتبيين آياته لهم بما لم يخل أيضاً من تحذير ضمني ، فقال تعالى :

﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

والبيان : الكشف عن الشيء ، وهو أعم من النطق ، مختص بالإنسان ، ويسمى ما بين به بياناً ، والبينة : الدلالة الواضحة ، عقلية كانت أو محسوسة، يقال: آية مبيَّنة ، اعتباراً بمن بينها ، وآية مبيِّنة ، وآيات مبيَّنات ومبيِّنات[٤]، يعني واضحات .

١– روح المعاني ١٨٠/١٧ .

٢– التفسير الكبير ١٥٨/٢٣ .

٣– أول سورة الرحمن ، وينظر المرجع السابق .

٤– المفردات /٦٨،٦٩ مادة بان .

والآيات: جمع آية ، وهي العلامة الظاهرة ، واشتقاق الآية – على الأرجح – من التأيي ، الذي هو التثبيت والإقامة على الشيء ، وقيل من غير ذلك[١]

والمراد من الآيات : الآيات القرآنية الدالة على المواعظ والأحكام الشرعية ، ومحاسن الآداب والقيم الأخلاقية ، والحِكَم الإلهية القدرية .

وتبيين الله للآيات معناه أنه يترلها كذلك ، أي مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها ، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك ، على حد قولهم : سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أي خلقهما صغيراً وكبيراً[٢] .

وإظهار الاسم الجليل – لفظ الجلالة " الله " – في موضع الإضمار لتفخيم شأن البيان[٣] .

وتقديم الجار والمجرور – " لكم " – للاهتمام والاعتناء بالمقدم ، والتشويق للمؤخر ، ثم ختم الله تعالى الآية بما يتناسب مع مقدمتها فقال تعالى : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ ، وهو إخبار من الله تعالى عن اتصافه بصفتي العلم والحكمة هكذا بصيغة المبالغة . فهو سبحانه وتعالى " عليم " بأحوال جميع مخلوقاته ، جلائلها ودقائقها ، " عليم " بما يصلح حال عباده ، " عليم " بما يبدونه وما يخفونه ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وهو سبحانه وتعالى " حكيم " في جميع أفعاله وتدابيره لخلقه ، حكيم فيما فرضه عليهم من الأفعال وكلفهم به من الأعمال ، حكيم فيما شرعه وقدره ، " حكيم " فيما يأمر به وينهي عنه .

ومن كان عليماً حكيماً هكذا يجب أن يطاع في كل ما يأمر به وينهى عنه

١– راجع المفردات /٣٣ مادة أي .

٢– تفسير أبي السعود ٧٦/٤.

٣– المرجع السابق ، روح المعاني ١٨٠/١٧ .

تعصوه) مثلاً ، وهذا من باب : إن كنت أباً لك فلم لا تحسن إليَّ ، فيذكرهم بالإيمان الذي هو العلة في الترك والتهييج ، لإبرازه في معرض الشك ، وفيه طرف من التوبيخ والتقريع[(١)] .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المعتزلة – ومَن وافقهم – استدلوا بهذه الآية على أن القذف ذنب يخرج صاحبه من الإيمان ، حيث قالوا : إن وجود الإيمان مشروط بعدم القذف ، فدل وجود القذف على عدم وجود الإيمان . وهذا مذهب باطل ، ورأى فاسد مردود ومعارض بآيات الإفك نفسها ، حيث ابتدأت الآيات بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾، أي منكم أيها المؤمنون ، فدل ذلك على أن القذف – وإن كان من الكبائر – لا يخرج صاحبه عن دائرة الإيمان[(٢)] .

فإن قيل : هل يجوز أن يُسمى الله تعالى واعظاً ، لقوله ﴿ يعظكم الله ﴾ ؟ أجيب عنه بأن الأظهر أنه لا يجوز ذلك ، كما لا يجوز أن يسمى معلماً لقوله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ ﴾[(٣)] .

وبعد أن حذر الله تعالى كل من له بالإفك صلة ، امتن عليهم بتبيين آياته لهم بما لم يخل أيضاً من تحذير ضمني ، فقال تعالى :

﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

والبيان : الكشف عن الشيء ، وهو أعم من النطق ، مختص بالإنسان ، ويسمى ما بين به بياناً ، والبينة : الدلالة الواضحة ، عقلية كانت أو محسوسة، يقال: آية مبيَّنة ، اعتباراً بمن بينها ، وآية مبيِّنة ، وآيات مبيَّنات ومبيِّنات[(٤)]، يعني واضحات .

١- روح المعاني ١٨٠/١٧ .

٢- التفسير الكبير ١٥٨/٢٣ .

٣- أول سورة الرحمن ، وينظر المرجع السابق .

٤- المفردات /٦٨،٦٩ مادة بان .

والآيات: جمع آية ، وهي العلامة الظاهرة ، واشتقاق الآية – على الأرجح – من التأبي ، الذي هو التثبيت والإقامة على الشيء ، وقيل من غير ذلك[(١)]

والمراد من الآيات : الآيات القرآنية الدالة على المواعظ والأحكام الشرعية ، ومحاسن الآداب والقيم الأخلاقية ، والحِكَم الإلهية القدرية .

وتبيين الله للآيات معناه أنه يترلها كذلك ، أي مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها ، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك ، على حد قولهم : سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أي خلقهما صغيراً وكبيراً[(٢)] .

وإظهار الاسم الجليل – لفظ الجلالة " الله " – في موضع الإضمار لتفخيم شأن البيان[(٣)] .

وتقديم الجار والمجرور – " لكم " – للاهتمام والاعتناء بالمقدم ، والتشويق للمؤخر ، ثم ختم الله تعالى الآية بما يتناسب مع مقدمتها فقال تعالى : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ ، وهو إخبار من الله تعالى عن اتصافه بصفتي العلم والحكمة هكذا بصيغة المبالغة . فهو سبحانه وتعالى " عليم " بأحوال جميع مخلوقاته ، جلائلها ودقائقها ، " عليم " بما يصلح حال عباده ، " عليم " بما يبدونه وما يخفونه ، لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وهو سبحانه وتعالى " حكيم " في جميع أفعاله وتدابيره لخلقه ، حكيم فيما فرضه عليهم من الأفعال وكلفهم به من الأعمال ، حكيم فيما شرعه وقدره ، " حكيم " فيما يأمر به وينهي عنه .

ومن كان عليماً حكيماً هكذا يجب أن يطاع في كل ما يأمر به وينهى عنه

١- راجع المفردات /٣٣ مادة أي .

٢- تفسير أبي السعود ٧٦/٤.

٣- المرجع السابق ، روح المعاني ١٨٠/١٧ .

لأجل ذلك ، لأن من لا يكون عالماً لا يجب قبول تكليفه ، وأما من كان عالما لكنه لا يكون حكيماً فقد يأمر بما لا ينبغي ، فإذا أطاعة المكلّف فقد يعذّب المطيع ، وقد يثيب العاصي ، وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة ، وأما من كان عليماً حكيماً فإنه لا يأمر إلا بما ينبغي ، ولا يهمل جزاء المستحقين ، فلهذا ذكر هاتين الصفتين وخصهما بالذكر[١] .

وإذا كان الله عليماً حكيماً فكيف يمكن تصديق ما قيل في حق عائشة رضي الله عنها ، زوج رسول الله صلى الله علية وسلم وحرمه المصون ، وقد بعث الله أفضل رسله إلى الناس كافة ليطهرهم ويزكيهم .

وإظهار الاسم الجليل[٢] بدلاً من الإضمار[٣] : لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي ، والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة[٤] .

ثم شرعت الآيات في بيان ما أعدَّه الله عز وجل من عذاب أليم – في الدنيا والآخرة – لأولئك الذين يحبون إشاعة الفاحشة في مجتمع المسلمين ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهذا توجيه آخر من الله تبارك وتعالى لجماعة المسلمين ، أدَّبهم فيه بأدب الإسلام ، وحذّرهم فيه من إشاعة الفاحشة في مجتمع المسلمين ، بل حذّرهم سبحانه من مجرد محبة ذلك ، فضلاً عن المشاركة فيه بالقول أو الفعل.

* والمحبة : إرادة مـا يراه الإنسان أو يظنه خيـرا ، وهي على أوجـه ،

١– التفسير الكبير ١٥٨/٢٣ .

٢– أعني لفظ الجلالة في قوله تعالى " والله عليم حكيم ".

٣– فكان الظاهر : ((وهو عليم حكيم)) .

٤– تفسير أبي السعود ٧٦/٤ ، روح المعاني ١٨٠/١٧ .

منها : محبة للشفقة والرحمـة ، كمحبة الـوالد والـوالدة ، ومحبة للإجلال والإعظام كمحبة الولد لوالده ، ومحبة للذة والنفع ، كمحبـة الرجل للمرأة ، وحب الإنسان للمال ، ومحبة للفضل والمنزلة ، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض من أجل العلم ، ومحبة استحسان و موافقة ، كمحبة سائر الناس .

وربما فُسِّرت المحبة بالإرادة ، لكن الظاهر أن المحبة أبلغ وأخص من الإرادة ، فكل محبة إرادة ، وليس كل إرادة محبة ، و قد فرق البعض بينهما بأن المحبة تتعلق بالأعيان والإرادة تتعلق بالأفعال ، فإذا أريد من أحدهما الآخر فهو مجاز أو كناية ، و محبة الله تعالى للعبد : إنعامه عليه ، و محبة العبد لربه عز و جل : طلب الزلفى لديه.[١]

* والشياع : الانتشار والتقوية ، يقال : شاع الخبر أي كثر وقوى ، وشاع القوم انتشروا وكثروا ، وشيعت النار بالحطب قويتها ، والشيعة من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه ، ومنه قيل للشجاع مشيع[٢] . ويقال : شاع الشيء يشيع شيوعا وشيعا وشيعانا وشيعوعة إذا ظهر وقوى وانتشر وتفرق[٣] .

* والفحش والفحشاء والفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[٤] .

وخص البعض الفاحشة في الآية الكريمة هنا بالزنا ، كالإمام الطبري وغيره قال ابن جرير : إن الذين يحبون أن يذيع الزنا في الذين صدقوا بالله ورسوله.[٥]

وقال الخازن: تشيع الفاحشة أي يظهر الزنا ويذيع [٦] ،وبمثله قال السيوطي [١]

١– راجع : المفردات /١٠٥ مادة حب ، حاشية الشهاب ٢٨/٧ .

٢– المرجع السابق /٢٧٠ ، ٢٧١ مادة شيع .

٣– تفسير القرطبي ١٣٧/١٢ .

٤– المفردات /٣٧٣ ، ٣٧٤ مادة فحش .

٥– جامع البيان ١٠٠/١٨ .

٦– تفسير الخازن ٢٨٨/٣ .

* والتعبير بالمحبة يفيد القصد والإرادة ، أي أن هؤلاء ما أرادوا هذا القبح إلا عـن قصد إلى الإشاعة وإرادة ومحبة لها [٢] ، والمراد بشيوع الفاحشة : شيوع خبرها . وقد اختُلف في الاسم الموصول – (إن الذين يحبون) – هل هو عام أو خاص ؟

فقيل : الآية مخصوصة بمن قذف عائشة رضي الله عنها ، والمراد بالاسم الموصول – الذين– عبد الله بن أبي ومن شايعه ، وهو مروى عن مجاهد وابن زيد[٣] وعليه فالتعريف للعهد ، ويكون التعبير بالمضارع في الصلة – " يحبون " – للإشارة إلى زيادة تقبيحهم بأنه قد صارت محبتهم لشيوع الفاحشة عادة مستمرة[٤].

وقيل : الآية عامة في كل قاذف ، والمراد بالموصول كل من يتصف بمضمون الصلة ، وعليه فالتعريف للجنس [٥] ويدخل فيه المشيعون للإفك دخولاً أوَّليًا .

وقد نتج عن هذا الاختلاف السابق اختلافهم كذلك في المراد بقوله تعالى(في الذين آمنوا) ، فمن ذهب إلى خصوص الآية قال : المراد بالذين آمنوا خصوص المقذوفين ، وهـم عـائشة وصفوان رضي الله عنهما ، فمعنى الآية : (إن الذين يحبون) المراد عبد الله بن أبي ، (أن تشيع الفاحشة) أي الزنا ، (في الذين آمنوا) أي في عائشة وصفوان .

ومن ذهب إلى عموم الآية قال : المراد بالذين آمنوا كل من اتصف بصفة الإيمان ، وعلى رأسهم أهل العفة والإحصان من جميع المؤمنين .

* وأرى أن الظاهر والراجح أيضاً أن الآية وإن كانت قد نزلت مخصوصة بمن

١- الكشاف ٢١٥/٣ بتصرف .

٢- الدر المنثور ١٥٣/٦. ١٨

٣- البحر المحيط ٢٣/٨ ، روح المعاني ١٨١/١٧ .

٤- روح المعاني ١٨١/١٧.

٥- المرجع السابق بتصرف.

قذف عائشة رضي الله عنها ، إلى أنها عامة في كل من اتصف بحب إشاعة الفاحشة في المؤمنين ، لأن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب كما هو معلوم .

قال الرازي رحمه الله : لا شك أن ظاهر قوله " إن الذين يحبون " يفيد العموم، وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة ، ولا شك أن هذه الآية نزلت في قذف عائشة ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فوجب إجراؤها على ظاهرها في العموم ، ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذف عائشة قوله تعالى : (في الذين آمنوا) ، فإنه صيغة جمع ، ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك ، أ.هـ[١].

* وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾، يعني لهم بسبب ما ذكر عذاب موجع ، فالأليم هو المؤلم ، من الألم ، وهو الوجع الشديد [٢].

وقد اختلف في عذاب الدنيا ، فقيل المراد إقامة الحد عليهم من أجل القذف ، وقيل: أراد العداوة واللعن من الله والمؤمنين ، وقيل : ما أصابهم من البلاء كالعمى والشلل وغيرهما ، وقيل : أراد الذم الذي استحقوه بفعلهم .

وأقول : لا مانع أن يشمل العذاب الدنيوي كل ما ذكر ، وهو الظاهر .

وأما عذاب الآخرة فمعلوم ، وهو عذاب النار والسعير ، فمن مات منهم مُصرًا على ذلك غير تائب ، له عذاب جهنم وبئس المصير .

* وتذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع ، ذلك لأن المحبة القلبية كامنة دفينة ، لا يعلمها الناس إلا ببعض الأمارات ، أما الله عز وجل فهو خالق تلك القلوب ومالكها ، يُقلِّبها كيف يشاء، فهو سبحانه وتعالى محيط بظواهرها وبواطنها ، لا يخفى عليه شيء من أسرارها ،

١- التفسير الكبير ١٥٩/٢٣ .

٢- المفردات/٢١ مادة ألم .

فصار هذا التذييل نهاية في الزجر والتخويف ، لأن من أحب إشاعة الفاحشة مهما بالغ في إخفاء تلك المحبة ، فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ، وأن علمه سبحانه بذلك الذي أخفاه ، كعلمه بالذي أظهره ، وهو تعالى مجازيه بفعله ، وفي ذلك من الوعيد ما لا يخفى على أدنى متأمل [١].

* وعليه فإن العلم ليس هو المقصود في ذاته ، وإنما ما يترتب على العلم من المحاسبة والمؤاخذة والمعاقبة ، بمقتضى علمه سبحانه وتعالى .

* ومفعول العلم محذوف ، وسر حذفه – والله أعلم – ليعم كل معلوم ، ولذلك وجدنا أهل التفسير قد اختلفت عباراتهم في تقدير هذا المفعول .

فقال الطبري : والله يعلم كذب الذين جاءوا بالإفك من صدقهم ، وأنتم أيها الناس لا تعلمون ذلك ، لأنكم لا تعلمون الغيب ، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب [٢].

وقال الزمخشري : والله يعلم ما في القلوب من الأسرار والضمائر ، وأنتم لا تعلمون ، أو : والله يعلم من أحب الإشاعة [٣].

وقال أبو حيان : والله يعلم أيّ البريء من المذنب ، وسرائر الأمور ، ووجه الحكمة في ستركم ،والتغليظ في الوعيد [٤].

وقال القرطبي : والله يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه ، ويعلم كل شيء ، وأنتم لا تعلمون [٥].

وقال البيضاوي : والله يعلم ما في الضمائر ، وأنتم لا تعلمون [٦].

١- التفسير الكبير ١٦٠/٢٣ بتصرف .
٢- جامع البيان ١٠٠/١٨ .
٣- الكشاف ٢١٥/٣ .
٤- البحر المحيط ٢٣/٨ .
٥- تفسير القرطبي ١٣٧/١٢ .
٦- أنوار التنزيل ٢/ ٩٦ .

وقال أبو زهرة : والله يعلم صحة الاتهام إن كان صحيحا ، ومواضع التهمة ويعلم أثر ذلك في الجماعات ، من إشاعة الفساد ، وانحلال الرابطة الاجتماعية وإشاعة الأقوال الباطلة، وأنتم لا تعلمون أسرار البيوت ودخائلها فإن ذلك في كنّ المستور ، ومن المصلحة ستره [١].

والأولَى أن يُقال : والله يعلم جميع الأمور التي من جملتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة ، وكذا وجه الحكمة في تغليظ الوعيد ، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الله تعالى ، لأن علم الناس لا يُبنى إلا على الأقوال والأفعال المحسوسة ، وبهذا قال أبو السعود والألوسي وغيرهما [٢]. والله أعلم....

* ثم عادت الآيات لتكرير المنة من الله عز وجل بترك المعاجلة بالعقاب على ذنوبهم ، للتنبيه على كمال عظم الجريمة ، وسعة رحمة الله تعالى بعباده فقال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّه رءوف رَحِيمٌ ﴾

والخطاب في الآية – على ما روى عن ابن عباس – لمسطح وحسان وحمنة[٣].

وقيل : الخطاب في الآية عام لمن عدا عبد الله بن أبي وأمثاله من المنافقين الخائضين[٤].

و (لولا) هنا هي الامتناعية ، فهي حرف امتناع لوجود ، كما سبق ، لكن جوابها محذوف قد دل عليه السياق ، وقد حذف الجواب لتذهب فيه النفس كل مذهب ، ولذلك اختلفت عبارات المفسرين في تقديره.

فقدّره الطبري بقوله : ولولا أن تفضل الله عليكم أيها الناس ورحمكم ، وأن

١- زهرة التفاسير ٥١٦٥/١٠ .
٢- تفسير أبي السعود ٧٧/٤ ، روح المعاني ١٨١/١٧ ، ١٨٢ .
٣- روح المعاني ١٨٢/١٧ ، تفسير الخازن ٢٨٩/٣ .
٤ – روح المعاني ١٨٢/١٧

الله ذو رأفة ، ذو رحمة بخلقه لهلكتم فيما أفضتم فيه ، وعاجلتكم من الله العقوبة [١].

ويعلل الطبري حذف الجواب بضرورة النظم ، ولتتماسك معاني الآيات ، فقال : وترك ذكر الجواب لمعرفة السامع بالمراد من الكلام بعده ، وهو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾الآية [٢].

وكأنَّ الطبري رحمه الله أراد أن يقول: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا .

وقدّره الرازي بقوله : لولا فضل الله ورحمته لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم ، لكنه رءوف رحيم [٣].

وقدّره الشهاب بقوله : و الجواب المحذوف لمسّكم [٤].

وقدّره البقاعي بقوله : لتركَكم في ظلمات الجهل تعمهون ، فثارت بينكم الفتن حتى تفانيتم ، ووصلتم إلى العذاب الأليم، بعد الهم اللازم [٥].

وقدّره أبو مسلم بقوله : لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة[٦].

* وقيل إن جواب " لولا " مذكور غير محذوف ، و هو قوله تعالى ﴿ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[٧] ، وقيل : جوابه لأتبعتم الشيطان ، كما علله الطبري .

* لكن الأقرب والأولى أن الجواب محذوف ، ليذهب فيه الفكر كل مذهب.

* والفضل : الزيادة عن الاقتصار ، وذلك ضربان : محمود . كفضل العلم والحلم ، ومذموم . كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه ، وكل عطية لا

١- جامع البيان ١٠٠/١٨ .

٢- المرجع السابق .

٣- التفسير الكبير ١٦٠/٢٣ .

٤- حاشية الشهاب ٢٨/٧ .

٥- نظم الدرر ٢٤٦/٥ .

٦- نقله عنه الرازي في تفسيره ١٦٠/٢٣ .

٧- المرجع السابق .

تلزم مَن يُعطي يقال لها فضل[١] ، كالفضل الوارد في هذه الآية وأمثالها .

* والرحمة : رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم ، وقد تُستعمل تارة في الرقة المجردة ، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة ، نحو : رحم الله فلاناً . وإذا وصف بها الباري سبحانه فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ، ومن الآدميين رقة وتعطف ، فالرحمة إذاً منطوية على معنيين : الرقة والإحسان ، فركّز تعالى في طبائع الناس الرقة ، وتفرد سبحانه وتعالى بالإحسان[٢].

* وأما الرأفة ففسَّرها البعض بالرحمة ، كالراغب[٣]، وفسَّرها البعض بأكمل درجات الرحمة ، كابن منظور القائل : الرأفة : أشد الرحمة[٤].

* وأرى أن التفسير الأخير أوْلَى وأرجح ، فالرأفة : أرق درجات الرحمة وأعلاها ، ولذلك نهى الحق سبحانه عن الرأفة ولم ينه عن مطلق الرحمة في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾[٥]، لأن الرحمة مطلوبة .

* وحَسُن جداً ما قاله الشيخ محمد أبو زهرة في بيان الفرق بين الرأفة والرحمة، حيث قال رحمه الله :

الرأفة : انفعال النفس بالرفق والعطف على مَن يُخشى عليه ، وهذا بالنسبة للإنسان ، أما بالنسبة لله تعالى فهي صفة تليق بذاته الكريمة ، وهي تقابل ما عند العبيد ، ولكنها تتفق مع صفات الكمال التي يتصف بها الله تعالى ، والرحمة : لطف الله تعالى في الأحكام ، ووضعها في مواضعها ، سواء أكانت خفيفة أم كانت غليظة في عقاب ، فالعقوبة – مهما كانت شديدة – من رحمة الله تعالى بعباده .أ.هـ[٦].

١- المفردات /٣٨١ ، ٣٨٢ مادة فضل .

٢- المرجع السابق /١٩١ مادة رحم .

٣- المرجع السابق /٢٠٨ مادة رأف .

٤- لسان العرب ١١٢/٩ مادة رأف .

٥- من الآية ٢ سورة النور .

٦- زهرة التفاسير ٥١٦٦/١٠

* وقوله تعالى (وأن الله رءوف رحيم) معطوف على (فضل الله) .

* وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار [1]: لتربية المهابة ، وللإشعار باستتباع واستلزام صفة الألوهية للرأفة والرحمة .

وتغيير سبك الكلام [2] وتصديره بحرف التحقيق والتوكيد – " وأن " – لبيان اتصافه تعالى في ذاته بهاتين الصفتين الجليلتين – الرأفة والرحمة – على جهة الدوام والاستمرار ، لا بيان حدوث تعلقهما بالمخاطبين [3].

* قوله تعالى (رءوف رحيم) صيغتا مبالغة من الرأفة والرحمة ، وقد دلت تلك المبالغة على كمال رأفته سبحانه وتعالى وسعة رحمته بعباده ، حيث أنعم عليهم ببيان شريعته ، وعفا عنهم ليرتدعوا ويقلعوا عن أهوائهم ، ورحمهم من أن يؤاخذهم بذنوبهم ، أو يعاقبهم بجرمهم ، وإن كانوا يستحقون ذلك .

* نسأل الله تعالى أن يعفو عنا ، وأن يرحمنا برحمته الواسعة في الدنيا والآخرة، وأن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وبعد :

فهذه هي الآية العاشرة ، خاتمة الآيات العشر ، التي نزلت دفعة واحدة في براءة السيدة عائشة رضي الله عنها ، بعد أن خاض أهل الإفك في شرفها شهراً كاملاً ، فرضي الله عن عائشة وأبويها وصفوان وأرضاهم ، جزاء ما لحقهم من أذى بسبب تلك الإشاعات . وصل الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين

١– فكان من الممكن أن يُقال : (وأنه رءوف رحيم) ، فعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر .

٢– فكان من الممكن أن يُقال : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ورأفته...) .

٣– تفسير أبي السعود ٤/٧٧ ، روح المعاني ١٧/١٨٢ بتصرف يسير .

المعنى الإجمالي العام

تناولت تلك الآيات الكريمة قضية من أخطر القضايا التي تعرض لها الرسول ﷺ والجماعة المسلمة في تاريخ الدولة الإسلامية ، أعني حادثة الإفك التي تعلقت بعرض النبي ﷺ وحرمه المصون .

لقد كانت القضية – بكل المقاييس البشرية – ضربة من ضربات الأعداء القاسية ، التي وجِّهت في أصلها إلى العقيدة الإسلامية ، وإلى المسلمين كافة حيث إن الهدف من تلك الضربة لم يكن مجرد الطعن في عرض محمد ﷺ وعائشة وصفوان ، وإنما كان هدفها الطعن في الدين ، وفي جميع أفراد الأمة ممثلة في شخص نبيها ومطهرها ومربيها وقائدها ﷺ .

* ولذلك. قال اللعين ابن أُبيّ : (انظروا إلى زوجة نبيكم باتت عند رجل ...) . لم يقل : انظروا إلى عائشة ، أو إلى زوجة محمد ، أو ما شابه ذلك ... ولكنه يقول : زوجة نبيكم .... !!

فكان الغرض إذاً الطعن في النبوة .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

واقتضت حكمة الله تعالى أن يتأخر الوحي ببيان الحقيقة ، لأمر يعلمه الله تعالى ويريده ، وتستمر المعركة التي استخدم الأعداء فيها سلاح الكلمة وخبث المكر ودهاء النفاق ، حتى أرجفت المدينة شهراً وزلزلت الجماعة المسلمة – وعلى رأسهم النبي ﷺ – زلزالاً شديداً .

وتداركت رحمة الله تعالى الأمة الإسلامية ، فأنزل الله عز وجل تلك الآيات وفيها البيان الشافي ، والحقيقة الناصعة ، والتوجيه الرباني ، والأدب القرآني والتحذير الشديد من العود إلى مثل ذلك ، فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ الآيات .

وللأستاذ سيد قطب في هذا المقام كلام طيب ، ما أحب أن يفوتني ذكره ، لما فيه من عموم الفائدة ، قال رحمه الله :

هذا الحادث . حادث الإفك . قد كلّف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق ، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل ، وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه عائشة التي يحبها ، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل . شهراً كاملاً . علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق .

هكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته ، وعاش أبو بكر رضي الله عنه وأهل بيته ، وعاش صفوان ، وعاش المسلمون جميعاً هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق ، وفي ظل تلك الآلام الهائلة ، بسبب حديث الإفك ، الذي نزلت فيه تلك الآيات .

* وإن الإنسان ليقف متململاً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول ﷺ ، وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجه المقربة وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة ، تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة .

فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة البريئة . تُرمى في أعز ما تعتز به ، ترمى في شرفها ، وهي ابنة الصديق ، الناشئة في العش الطاهر الرفيع ، وترمى في أمانتها ، وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم ، وترمى في وفائها ، وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير ، ثم ترمى في إيمانها ، وهي الناشئة في حجر الإسلام ، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة ، وهي زوج رسول الله ﷺ .

ها هي ذي ترمى ، وهي بريئة غافلة ، لا تحتاط لشيء ، ولا تتوقع شيئاً ، فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله ، وتترقب أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا ، تبرئها مما رميت به ، ولكن الوحي يتلبث ، لحكمة يريدها الله ، شهراً كاملاً ،

وهي في مثل هذا العذاب .

ويا لله لها وهي تفجأ بالنبأ من أم مسطح ، وهي مهدودة من المرض ، فتعاودها الحمى ، وهي تقول لأمها في أسى : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ وفي رواية أخرى تسأل : وقد علم به أبي ؟ فتجيب أمها : نعم ! فتقول : ورسول الله ﷺ ؟ فتجيب أمها كذلك : نعم !

ويا لله لها ورسول الله ﷺ — نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه — يقول لها: " فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه "....

فتعلم أنه شاك فيها ، لا يستيقن من طهارتها ، ولا يقضي في تهمتها ، وربه لم يخبره بعد ، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها ، ولكن لا تملك إثباتها.

وهاهو ذا أبو بكر الصديق — في وقاره وحساسيته وطيب نفسه — يلذعه الألم وهو يُرمي في عرضه ، في ابنته زوج محمد صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه .. وإذ الألم يفيض على لسانه ، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم ، فيقول : والله ما رُمينا بهذا في الجاهلية أفنرمي به في الإسلام ؟ وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل ، حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة : أجب عني رسول الله . قال في مرارة هامدة : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

وأم رومان — زوج الصديق رضي الله عنهما — تقول كما قال زوجها من قبل : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل . وهو يُرمي بخيانة نبيه في زوجه ، فيرمي بذلك في إسلامه ، وفي أمانته ، وفي شرفه ، وفي حميته ، وفي كل ما يعتز به صحابي ، وهو من ذلك كله برئ. وهو يفاجأ بالاتهام

الظالم وقلبه برئ من تصوره ، فيقول : سبحان الله والله ما كشفت كتف أنثى قط .

ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه ، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به ، ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم – وهو منهي عنه – أن الألم قد تجاوز طاقته ، فلم يملك زمام نفسه الجريح .

ثم هاهو ذا رسول الله ﷺ وهو رسول الله ، وهو في الذروة من بني هاشم ...

هاهو ذا يرمي في بيته . وفي مَن ؟ في عائشة التي حلّت من قلبه في مكان الابنة والزوجة والحبيبة . وهاهو ذا يرمي في طهارة فراشه ، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة . وهاهو ذا يرمي في صيانة حرمته ، وهو القائم على الحرمات في أمته . وهاهو ذا يرمي في حياطة ربه له ، وهو الرسول المعصوم من كل سوء .

هاهو ذا ﷺ يُرمي في كل شيء حين يرمي في عائشة رضي الله عنها ، يرمي في فراشه وعرضه وقلبه ورسالته ، يرمي في كل ما يعتز به عربي ، وكل ما يعتز به نبي.

هاهو ذا ﷺ يرمي في هذا كله ، ويتحدث الناس به في المدينة شهراً كاملاً ، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً . والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً لا يبين فيه بياناً .

ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم . يعاني من العار ، ويعاني فجيعة القلب ، ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة ، الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق .. والشك يعمل في قلبه – مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله ، ولكنه لا يطمئن نهائياً إلى هذه القرائن – والفرية تفوح في المدينة، وقلبه الإنساني المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك ، فلا يملك أن يطرد الشك ، لأنه في النهاية بشر ، ينفعل في هذا انفعالات البشر . وزوج لا يطيق أن يُمَسّ فراشه ، ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت ، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم .

وهاهو ذا يثقل عليه العبء وحده ، فيبعث إلى أسامة بن زيد ، حِبّه القريب إلى قلبه ، ويبعث إلى علي بن أبي طالب ، ابن عمه وسنده ، يستشيرهما في خاصة أمره ، فأما علي فهو من عصب محمد ، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب ، ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد ، ابن عمه وكافله . فهو يشير بأن الله لم يضيق عليه ، ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية ، ليطمئن قلب رسول الله ﷺ ، ويستقر على قرار وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الود لأهله ، والتعب لخاطر الفراق فيُشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين ، وكذب المفترين الأفاكين .

* ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان ، وفي قلق الإنسان ، يستمد من حديث أسامة ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بهما القوم في المسجد ، فيستعذر ممن نالوا عرضه ، ورموا أهله ، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء .. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور ، وهم في مسجد رسول الله ﷺ وفي حضرته .

ويدل هذا على الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة ، وقد خُدِشت قداسة القيادة ، ويحز هذا في نفس الرسول ﷺ ، والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق ، فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس، ويطلب منها هي البيان الشافي المريح .

* وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ، وببراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم .

إن الأمر – كما يبدوا من هذا الاستعراض – لم يكن أمر عائشة رضي الله

عنها ، ولا قاصراً على شخصها ، فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها ، بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها ، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها ، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها ﷺ.

من أجل ذلك أنزل الله تعالى القرآن ليفصل في القضية المبتدعة ، ويرد المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام ، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله ، وما يعلمها إلا الله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ . فهم ليسوا فرداً ولا أفراداً ، إنما هم (عصبة) متجمعة ذات هدف واحد ، ولم يكن عبد الله بن أبي بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك ، إنما هو الذي تولى معظمه ، وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين ، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة ، فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية ، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة ، ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة وحسان ومسطح،أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة ، وعلى رأسها ابن سلول ، الحذر الماكر ، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة ، ولم يقل علانية ما يؤخذ به ، فيقاد إلى الحد ، إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم ، ولا يشهدون عليه .

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث ، وعمق جذوره ، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم.

ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد :" لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم".. خير . فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته ، وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف ، وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله ، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت

فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة – بهذه المناسبة – عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته والجماعة المسلمة كلها ، فهي ثمن التجربة ، وضريبة الابتلاء ، الواجبة الأداء.

أما الذين خاضوا في الإفك ، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة : "لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم "..ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله وبئس ما اكتسبوه ، " والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم " يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم ،والذي تولى كبره وقاد حملته كان هو عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين ، وحامل لواء الكيد ، ولقد عرف كيف يختار مقتلاً ، لولا أن الله كان من ورائه محيطاً ، وكان لدينه حافظاً ، ولرسوله عاصماً ، وللجماعة المسلمة راعياً.. ولقد روى أنه لما مَرَّ صفوان بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا :عائشة ..

فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها !

وهي قولة خبيثة ، راح يذيعها – عن طريق عصبة النفاق– بوسائل ملتوية. بلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التي لا تُصَدَّق ، والتي تكذبها القرائن كلها ، وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين ، وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهراً كاملاً ، وهي الفرية الجديرة بأن تنفي وتستبعد للوهلة الأولى.

وإن الإنسان ليدهش–حتى اليوم–كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه في جو الجماعة المسلمة حينذاك ، وأن تحدث هذه الآثار الضخة في جسم الجماعة ، وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس ، وأكبرها على الإطلاق.

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه ، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور ، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾.

نعم كان هذا هو الأولى ..أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم ، فظن الخير بهما أولى ، فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ، ولا يليق بصاحبه الذي لا يعلم عنه إلا خيراً ، كذلك فعل أبو أيوب الأنصاري وامرأته رضى الله عنهما ، وهو يدل على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه ، فاستبعد أن يقع ما نسب إلى عائشة وصفوان ، من معصية لله وخيانة لرسوله ﷺ ، وارتكاس في حمأة الفاحشة ، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة.

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور ، خطوة الدليل الباطني الوجداني .

فأمـا الخطوة الثانية فهي طلب الدليـل الخارجي والبرهـان الواقعي : ﴿ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ .

وهذه الفرية الضخمة التي تتناول أعلى المقامات ، وأطهر الأعراض ، ما كان ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة ، وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة ، وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل : ﴿ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء ﴾ وهم لم يفعلوا . فهم كاذبون إذاً . كاذبون عند الله الذي لا يبدل القول لديه ، والذي لا يتغير حكمه ، ولا يتبدل قراره ، فهي الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التي

لا براءة لهم منها ، ولا نجاة لهم من عقابها.

هاتان الخطوتان : خطوة عرض الموضوع على القلب واستفتاء الضمير وخطوة التثبت بالبينة والدليل .. غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك ، وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم ، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبداً بعد هذا الدرس الأليم : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درساً قاسياً . فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه ، فهي فعلة تستحق العذاب العظيم ، العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول ﷺ وزوجه وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عليه إلا خيراً ، والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع ، ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة ، والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة ، لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل ، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين!.

ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة ، ورحمته شملت المخطئين ، بعد الدرس الأليم .

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام ، واختلت فيها المقاييس ، واضطربت فيها القيم ،وضاعت فيها الأصول : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج ، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام:

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ .. ﴾..لسان يتلقى عن لسان ، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إمعان نظر ، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان ، ولا تتملاه الرؤوس ، ولا تتدبره القلوب ، ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم ،إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستقر في المدارك ، وقبل أن تتلقاها العقول ﴿ .. وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا ﴾ أن تقذفوا عرض رسول الله ، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يُرْمَ في الجاهلية ، وأن تتهموا صحابياً مجاهداً في سبيل الله ، وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه ورعاية الله له ﴿ ..وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي ، وتضج منه الأرض والسماء .

ولقد كان ينبغي أن تتحرج القلوب من مجرد سماعه والنطق به ، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعاً للحديث ، وأن تتوجه إلى الله تتزهه عن أي يدع نبيه لمثل هذا ، وأن تقذف بهذا الإفك بعيداً عن ذلك الجو الطاهر الكريم :﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ وعندما تصل هذه اللمسة إلى أعماق القلوب فتهزها هزاً ، وهي تطلعها على ضخامة ما جنت ، وبشاعة ما عملت . عندئذ يجئ التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم : ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ يَعِظُكُم .. ﴾ . في أسلوب التربية المؤثر ، في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار ، مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان : ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ . ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . فالمؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف ، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير ، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون :

﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ على مثال ما بَيَّن في حديث الإفك ، وكشف عما وراءه مـــن كيد ، وما وقع فيه من خطايا وأخطاء . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف ، ويعلم مداخل القلوب ، ومسارب النفوس وهو حكيم في علاجها ، وتدبير أمرها ، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها ..

ثم يمضي السياق في التعقيب على حديث الإفك ، وما تخلف عنه من آثار ، مكرراً التحذير من مثله ، مذكراً بفضل الله ورحمته ، متوعداً مَن يرمون المحصنات الغافلات بعذاب الله في الآخرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. والذين يرمون المحصنات – وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم – إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة بالخير والعفة والنظافة ، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة ، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها . بذلك تشيع الفاحشة في النفوس لتشيع بعد ذلك في الواقع.

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وذلك جانب من نهج التربية ، وإجراء من إجراءات الوقاية ، يقوم على خبرة بالنفس البشرية ، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها . ومن ثم يعقب بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ومن ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها ؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها ؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن ، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير؟

ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءوف رَحِيمٌ ﴾ .

إن الحدث لعظيم ، وإن الخطأ لجسيم وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء، ولكن فضل الله ورحمته ، ورأفته ورعايته ذلك ما وقاهم السوء، ومن ثَمَّ يذكرهم به المرة بعد المرة ، وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين ، أ- هـ [1].

نسأل الله العلي القدير أن يبصرنا بعيوبنا ، وأن لا يؤاخذنا بذنوبنا ، وأن يعفو عنا ويرحمنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

والحمد لله رب العالمين

---

١ - في ظلال القرآن ٤/٢٤٩٤ وما بعدها ، بتصرف يسير .

المطلب الثاني

﴿ الدروس المستفادة من حادثة الإفك ﴾

المتأمل في حادثة الإفك ، المتدبر لآياتها ومعانيها ، سيلفت نظره فيها أمور عدة، يجب عليه أن يتوقف عندها ، يتعلم منها المنهج الصحيح ، ويأخذ منها العبرة والدرس المستفاد، الذي ينفعه في حياته الدنيا والآخرة ، وما أحوجنا إلى هذه الدروس في واقعنا المعاصر ، الذي ضل الناس فيه عن صراط الله المستقيم ، إلا من رحم الله.

وتقتضي طبيعة هذا البحث الموجز أن أتحدث عن تلك الدروس بإيجاز ، لأن المقام هنا لا يتسع لتفصيل هذه الدروس ، ولكن – كما يقولون – مالا يدرك كله لا يترك كله ، فأقول وبالله التوفيق .

إن الدروس المستفادة من حادثة الإفك كثيرة جداً، ومن أهمها ما يأتي :

أولاً: القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وليس من صنع محمد ﷺ.

إن في حادثة الإفك أبلغ الرد على ما زعمه الجاهلون – قديماً وحديثاً– من أن القرآن الكريم ليس وحياً يوحى ، إنما هو من عند محمد ومن صنعه ، ابتكر معانيه وصاغ أسلوبه.

وهذا زعم باطل ، لا يستند إلى أي دليل ، أو أثارة من علم ، بل إن القارئ للقرآن الكريم يراه شاهداً لنفسه على كونه من عند الله تعالى ، وليس من صنع محمد أو أحد من البشر ، بل إن القرآن الكريم نفسه يرد هذا الإدعاء الكاذب.

وحادثة الإفك من أعظم الأدلة وأوضحها على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ ، ولم يتدخل فيه محمد ﷺ إلا بالبلاغ والبيان حيث إن أهل الإفك طعنوا في عرض النبي ﷺ ، حين اتهموا السيدة عائشة مع صفوان ، رضى الله عنهما ، قاصدين بذلك إلى الطعن في أصل العقيدة الإسلامية ، وظل

المجتمع الإسلامي كله – فضلاً عن النبي ﷺ وآل بيته– يعاني مرارة هذا الاتهام لمدة شهر كامل ، حتى نزلت الآيات ببراءة السيدة عائشة رضى الله عنها.

فلو كان القرآن حقاً من صنع محمد فما الذي منعه طيلة هذا الشهر أن يأتي بكلام يحمي به عرضه، ويقطع به ألسنة الأفاكين المفترين.

لو أن القرآن من صنع محمد ﷺ لقرأ على الناس الآيات فور إشاعة الخبر وما ترك نفسه فريسة الألم هذه المدة ، حتى تشكك في أمر زوجه المحببة إلى قلبه.

وفي القرآن كذلك – غير حادثة الإفك – ما يرد على زعم الجاهلين الباطل ويثبت أن القرآن بحق كلام الله تعالى ولم يتقوله محمد ، ومما يؤكد هذه الحقيقة أن القرآن لو كان من صنع محمد لأوجده حين احتاج إليه ، في المواقف التي كان يطلبه فيها ولا يظفر به، لحكمة يعلمها الله تعالى.

من ذلك احتياجه ﷺ إلى الوحي حين سأله كفار قريش عن أهل الكهف وذي القرنين والروح ، ليختبروه بذلك كما نصحتهم اليهود . وقال ﷺ للسائلين (أخبركم غداً بما سألتم عنه) ، ولم يستثن [1] .

وانقطع الوحي ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه في ذلك، حتى أرجف أهل مكة [2] . وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، حتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة.

ثم جاء جبريل عليه السلام عن الله تعالى بالإجابة على تلك الأسئلة [3] ،

---

١ – يعني لم يقل (إن شاء الله).

٢ – أي خاضوا في الحديث عن هذا الأمر.

٣ – السيرة النبوية ٢٦٦/١، وذكره الطبري وابن كثير وغيرهما في أول سورة الكهف ، وأورده الو احدي في سبب نزول قوله تعالى " ويسألونك عن الروح " الآية ، وأورده السيوطي في سبب نزول سورة الكهف.

مشفوعة بمعاتبة ربه إياه ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [1] ، ونزلت سورة الكهف ببيان خبر الفتية وأمر ذي القرنين، وفيها خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] .

ولو كان القرآن من صنع محمد ﷺ ما أوقع نفسه عرضة لانتقاد القرآن ، وما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسي، في بعض المواقف التي اجتهد فيها فأخطأ بحكم بشريته ، كالصلاة على المنافقين ، والإعراض عن عبد الله ابن أم مكتوم ، وفداء أسرى بدر ، وقبول العذر من المخلفين عن غزوة تبوك .

فحينما صلى النبي ﷺ على عبد الله بن أُبيّ بن سلول – رأس المنافقين– عاتبه القرآن في ذلك ، وأمره بعدم العود إلى مثله ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [3] .

وحينما أعرض النبي ﷺ عن الرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم ، وتولى عنه اهتماماً بنفر من أكابر قريش ، عاتبه القرآن في ذلك ، فقال تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ

---

١ – الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

٢ – الآيتان ٢٤/٢٣ من سورة الكهف .

٣ – الآية ٨٤ من سورة التوبة.

تَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ (١).

وحينما اختار النبي ﷺ فداء أسرى بدر– بعد استشارة أصحابه في الأسرى – عاتبه القرآن في ذلك بأسلوب شديد اللهجة ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٢).

وحينما أذن النبي ﷺ للمخلفين عن غزوة تبوك وقبل عذرهم ، وكان منهم من انتحل هذه الأعذار ، عاتبه القرآن في ذلك ، فقال تعالى :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٣).

يضاف إلى ذلك أنه لو كان القرآن من صنع محمد ﷺ لأخفى قوله تعالى :

﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ .. ﴾ (٤)., وما أنزلت عليه ﷺ من آية كانت أشد عليه منها .

كذلك لو كان القرآن من صنع محمد ﷺ لجاء بما يوافق هوى قومه ، وهو الحريص على إيمانه ، حتى كاد أن يهلك نفسه بسبب ذلك، فعاتبه ربه عز وجل قائلاً : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (٥). وقال تعالى :﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟

١ – أول سورة عبس.

٢ –الآيتان ٦٧/٦٨ من سورة الأنفال

٣ – الآية ٤٣ من سورة التوبة .

٤ – من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

٥ – الآية ٦ من سورة الكهف .

مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (١).

والبخع : قتل النفس غمّاً (٢). كما قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ ﴾ (٣).

فمع ما كان عليه ﷺ من هذه الحالة إلا أنه لم يستطع الإتيان بما يوافق هوى قومه ، ولا حتى النزول على رغبتهم في تغيير القرآن أو تبديل بعض آياته، بل إنه ﷺ رد على قومه قائلاً : "ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي" ، كما علمه القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤)، فدل ذلك على أن القرآن ليس من صنع محمد ، إن هو إلا وحي يوحى.

إن القرآن الكريم – بكل المقاييس – لا يمكن أن يكون من صنع محمد وتأليفه، لأن محمداً بشر، يستحيل أن يصدر عنه هذا النتاج البشري في ثلاثة وعشرين سنة دون تناقض أو تعارض بين آياته ، وصدق الله العظيم القائل :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (٥).

فهذا وغيره مما يؤكد – بما لا يدع مجالاً للشك– على حقيقة مسلمة ،هي أن القرآن الكريم من عند الله تعالى ، أوحاه إلى عبده ورسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ،

١ – الآية ٣ من سورة الشعراء.

٢ – المفردات / ٣٨، مادة بخع .

٣ – من الآية ٨ من سورة فاطر .

٤ – الآية ١٥ من سورة يونس .

٥ – الآية ٨٢ من سورة النساء.

ولم يصنعه محمد ، ولم يؤلفه من عنده ، ولم يبتكر معانيه ، كما زعم المبطلون .

وهذا هو الدرس الأول الذي نتعلمه من حادثة الإفك ، والله أعلم .

ثانياً : حرمة قذف أهل العفة والإيمان .

لقد حرم الله تبارك وتعالى قذف المحصنين والمحصنات ، وأوجب عليه الحد واللعنة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [١] ،

وجعله النبي ﷺ من السبع الموبقات ، فقال النبي في حديث متفق عليه : (اجتنبوا السبع الموبقات . قيل يا رسول الله وما هُنَّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) [٢] .

ولا شك أن المحصنين الغافلين المؤمنين يدخلون في الحكم أيضاً .

لذلك نص العلماء على أن القذف كبيرة من الكبائر ، لكونه مما له حد معلوم في الشرع ، ولأن الله عز وجل توَعَّدَ فاعله باللعنة والعذاب في الدنيا والآخرة ، إلا أن يتوب ، وأمره إلى الله تعالى .

وإنما حرم الله تعالى قذف أهل العفة والإيمان:لما يترتب عليه من أضرار عظيمة، ومفاسد رهيبة ، تصاب بها الأفراد والجماعات ، ويكفي ما يسببه هذا الجُرم من أذى بالغ لأهل العفة والإيمان ، والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [٣] .

---

١ – الآية ٢٣ من سورة النور .

٢ – متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الحدود ، باب رمي المحصنات ، برقم ٦٨٥٧ وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها ، برقم ١٤٥. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٨٨/١٢ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٣٦٠/١ .

٣ – الآية ٥٨ من سورة الأحزاب .

يكفي ما يسببه القذف من إشاعة للفاحشة ، وتلويث لرائحة المجتمع المسلم وهذا يؤدي بدوره إلى تشجيع الناس على ارتكاب الفواحش ، وخاصة فاحشة الزنا، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [١] .

فلهذا – وغيره – حرم الله تعالى قذف أهل العفة والإيمان .

ثالثاً : وجوب ستر العورات والتحذير من تتبعها وكشفها .

إن مما يستفاد من الآيات وجوب ستر عورات المسلمين ، وعدم تتبعها والتحذير من كشفها ، وهذا مبدأ إسلامي وخلق إيماني ، دعا إليه القرآن الكريم وحث عليه الرسول الكريم ﷺ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [٢]، وقال ﷺ : (إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدهم ، أو كدت أن تفسدهم) [٣] .

وقال ﷺ مُحَذِّراً من تتبع العورات : (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته) [٤] .

والأحاديث في هذا الشأن كثيرة جداً ، كلها تحذر من تتبع العورات وكشفها

---

١ – الآية ١٩ من سورة النور.

٢ –من الآية ١٢ من سورة الحجرات .

٣ – أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في النهي عن التجسس، برقم ٤٨٨٨ ، سننه٢٧٤/٤

٤ – أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في تعظيم المؤمن ،برقم ٢٠٣٩ ، وقال حديث حسن غريب ، سننه٤١٦/٣، وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب النهي في الغيبة ، برقم ٤٨٨٠ ، سننه ٢٧١/٤ ، وأخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي برزة السلمي ، برقمي ١٩٦٦٤ ،١٩٦٨٩، وقال المحقق: إسناده صحيح ، المسند ٣٣/١٥، ٤١/١٥.

ذلك المنكر الذي يفسد المجتمع ، ويُخَرِّبُ البيوت ، ويُقَطِّعُ ما بين الأفراد من روابط المحبة، وأواصر الألفة.

فليحذر المسلم من تتبع العورات وكشفها ، وليعمل على الستر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وليعلم أن الجزاء من جنس العمل ، ففي الحديث السابق (من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته) ، وكذا من عمل على ستر العورات كافأه الله تعالى بستره في الدنيا والآخرة ، ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) [1] ، بل جاء في حديث آخر الدعوة إلى الستر على أي إنسان ، مسلماً كان أو غير مسلم، ففي الحديث الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : (لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة) [2].

لذلك اتفق العلماء على أن ستر الذنوب من المصلحة ،لأن الفاحشة إذا شاعت سهل على الناس ارتكابها ، فالإفشاء شر في ذاته والستر أولى.

كذلك اتفق العلماء على أنه لا خير في القذف أبداً، سواء كان القاذف صادقاً أم كاذباً.

قال الرازي رحمه الله : لأن القاذف بتقدير كونه صادقاً لا يستحق الثواب على صدقه ، بل يستحق العقاب ، لأنه أشاع الفاحشة ، وبتقدير كونه كاذباً فإنه

---

٢ – بعض حديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، برقم ٢٦٩٩، صحيح مسلم بشرح النووي ٢٦/٩. وأخرجه بنحوه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في المعونة للمسلم، برقم ٤٩٤٦، سننه ٢٨٨/٤. وأخرجه الترمذي في كتاب الحدود ، باب ما جاء في الستر علي المسلم ، برقم ١٤٣٠ ، وفي كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في السترة علي المسلم ، برقم ١٩٣٧، سننه ١١٥/٣ ، ٣٧٣/٣.

٢ – أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب بشارة من ستر الله تعالى عليه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة، برقم ٢٥٩٠، صحيح مسلم بشرح النووي ٣٨٨/٨ .

يستحق العقاب العظيم ، ومثل ذلك مما يقضي صريح العقل الاحتراز عنه [1].

فلا يصح – بأي حال من الأحوال – أن يتخذ الناس مجالس السمر للخوض في الأعراض، واتهام الأبرياء والبريئات بالباطل ، وإلا فلا نلومنّ إلا أنفسنا.

ولقد كان من مأثور دعائه ﷺ : (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا).

آمـــين

رابعاً : موازين الله تعالى غير موازين البشر .

ويستفاد ذلك من آيات الإفك في موضعين : الأول من قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، والثاني من قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ . كما يستفاد ذلك أيضاً من قول السيدة عائشة رضى الله عنها : "ما كنت أظن أن يترل في شأني وحي يتلى ، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيَّ بأمر يتلى ...".

هكذا يتضح لنا أن موازين الله تعالى غير موازين البشر ، وأن الأمور لا تجري دائماً بحسب الظاهر ، فقد يكون الأمر شراً في ظاهره ، بينما يشتمل في حقيقته على خير كثير ، وصدق الله العظيم القائل :﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [2]، والقائل أيضاً : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [3].

وانظر مثلاً إلى قصة موسى والخضر – عليهما السلام – وإلى صلح الحديبية ، وإلى ما كان يقوله الناس عن إسلام عمر بن الخطاب ، قبل أن يسلم وإلى غير ذلك

---

١ – التفسير الكبير ١٥٧/٢٣.

٢ – آخر الآية ١٩ من سورة النساء .

٣ – آخر الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

يتأكـــد لك أن موازين الله تعـــالى تختلف عن موازين البشر وأن الأمور لا تجري دائماً بحسب الظاهر.

فالفرق إذاً كبير جداً بين موازين الله تعالى وموازين عباده ، وهو نفس الفرق بين الحكمة الإلهية الشاملة ، والنظرة البشرية القاصرة ، لأن الفرق شاسع بين علم الله تعالى المحيط بكل شيء ، وعلم خلقه.

فعلى الإنسان العاقل أن يتريث في الحكم على الأشياء ، وأن لا يحكم على الأمور بظواهرها ، فربما كان الأمر خيراً في ظاهره وهو شر في حقيقته، وربما كان العكس ، والله تعالى يعلم وعباده لا يعلمون .

خامساً : الترهيب من الكذب .

لقد رهبت الآيات من الكذب وحذرت من استمرائه ، ويتضح ذلك من خلال إطلاق لفظ الإفك على تلك الحادثة، ذلك اللفظ الذي يعني أبلغ أنواع الكذب، كما يتضح ذلك أيضاً من قوله تعالى في الآيات : ﴿ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ .

والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآثار المروية عن السلف الصالح في تحريم الكذب وذمه والترهيب منه وبيان عاقبته الوخيمة،أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تنسى ، ولو لم يكن في الكذب من ضرر إلا كونه طريقاً إلى النار لكفى، وصدق رسول الله ﷺ القائل " وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار " (١) .

فليحذر الإنسان من الكذب ، وليعلم أن عاقبته – في الدنيا والآخرة – وخيمة

---

١ – هو بعض حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب قوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين "، برقم ٦٠٩٤ .
وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة باب قبح الكذب وحسن الصدق ، برقم ٢٦٠٧.
صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٥٢٣/١٠ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٢٦٠٧/٨ .

سادساً : النفاق شر الأخلاق .

رأينا أن المنافقين هم الذين قادوا معركة الإفك ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ بن سلول – رأس المنافقين – لعنه الله ، ولم يكن غرض المنافقين – كما قلنا سابقاً – مجرد الطعن في عرض عائشة وصفوان رضى الله عنهما ، ولا حتى في عرض محمد كبشر ، لم يكن ذلك هدفهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، لكنهم أرادوا توجيه ضربة قاسية إلى صميم العقيدة الإسلامية، متمثلة في شخص رسول الله ﷺ ، لذلك قال ابن أبي : امرأة نبيكم باتت عند رجل ثم جاء يقودها .....الخ ، توصلاً منه – عليه اللعنة – إلى الطعن في النبوة والرسالة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على خطورة طائفة المنافقين على الإسلام والمسلمين ، والآيات والأحاديث والآثار في التحذير من النفاق والمنافقين كثيرة جداً، ومشهورة يطول المقام بذكرها.

فعلى المسلمين أن يحذروا من تلك الطائفة ، ولينتبهوا إلى كيدهم ومكرهم وخداعهم ، وأن لا ينخدعوا بلسانهم المعسول ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

سابعاً : رحمة الله تعالى بعباده واسعة ، وفضله لا يُوصف .

لقد سجلت الآيات جانباً من فضل الله تعالى الذي لا يُتخيل ، ومن رحمته عز وجل الواسعة ، وذلك في موضعين ، الأول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ والثاني في خاتمة الآيات ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وهذا امتنان عظيم من الجواد الكريم على خلقه ، فلولا أن الله تفضل على

الناس ورحمهم لهلكوا ، بسبب ما وقعوا فيه من المعاصي ، وما عاجلهم الله به من العقاب على معاصيهم ، إن فضل الله عظيم لا يوصف ، ورحمته بعباده واسعة لا تتخيل ، بذلك نطق القرآن في كثير من آياته ، ونطقت أحاديث النبي ﷺ ، الذي كان بالمؤمنين رحيماً .

وحق لعباد الله أن يفرحوا بذلك الفضل العظيم ، وبتلك الرحمة الواسعة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١) .

ثامنا : بشرية النبي ﷺ .

قلنا إن المنافقين – لعنهم الله – قصدوا بالإفك الطعن في النبوة والعقيدة الإسلامية ، ولكن الله تعالى عاملهم بنقيض صنيعهم ، حيث كانت تلك الحادثة من أوضح الأدلة على صحة النبوة ، ومن أظهر البراهين على سلامة العقيدة الإسلامية.

ويبدو ذلك من إظهار شخصية النبي ﷺ والتأكيد على بشريته.

فقد دلت الآيات على أن النبي ﷺ لم يخرج برسالته ونبوته عن كونه بشراً، يعتريه ما يعتري سائر البشر ، من ألم وضيق واضطراب وشك وحاجة إلى مشورة أهل الرأي ... وما شابه ذلك .

ولعل ذلك كان من أسباب تأخر الوحي لمدة شهر كامل ، حتى يقف المسلمون على تلك الحقيقة، وهي إظهار شخصية النبي ﷺ البشرية ، صافية عن كل ما قد يلتبس بها في أذهان المؤمنين .

فنحن نتعامل مع النبي ﷺ باعتبارين ، الأول : كونه بشراً يعتريه ما يعتري سائر البشر ، والثاني : كونه نبياً معصوماً ، مؤيداً بالوحي من الله عز وجل مع التحذير من طغيان أحد الاعتبارين على الآخر .

---

١ – الآية ٥٨ من سورة يونس .

فالواجب إذاً أن لا نَغُضَّ الطرف عن بشرية النبي ﷺ وأن لا نتجاهل نبوته ﷺ وعصمته ، وأن لا نرفعه فوق مقام النبوة ، وأن لا نعتقد فيه شيئاً لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى .

تاسعاً : التحذير من مكر الأعداء .

إن حادثة الإفك قد أفادت – فيما أفادته – أن أعداء الإسلام دائماً يحاولون الطعن في الإسلام وعقيدته وأخلاقه ومبادئه ، لأنهم لا يريدون لجماعة المسلمين أي خير، وصدق الله القائل : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١).

ووسائل الأعداء لتحقيق ذلك متعددة ومكشوفة ، وعلى رأسها إشاعة الفاحشة في المجتمعات، وتلك حقيقة حذّر الله منها جماعة المسلمين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢).

فمنذ عصر التريل إلى وقتنا الحاضر لا يتوقف أعداء الإسلام عن إشاعة الفاحشة بين المسلمين ، وإذا كانت هذه طبيعة الأعداء بصفة عامة ، فإن لليهود بصفة خاصة النصيب الأكبر منها ، وخاصة في العصر الحديث ، فاليهود – لعنهم الله – يعملون جاهدين على نشر الفاحشة وإشاعتها في كل المجتمعات ، حتى يتخلصوا من المبادئ السماوية ، وتسهل سيطرتهم على العالم كما يريدون .

جاء في مخططات اليهود السرية :

يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان ، فتسهل سيطرتنا، إن (فرويد) منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس ، لكي لا يبقى في نظر

---

١ – أول الآية ١٠٥ من سورة البقرة .

٢ – الآية ٢٧ من سورة النساء .

الشباب شئ مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار الأخلاق .

هذا هو هدف اليهود الذي يسعون إلى تحقيقه بكل الوسائل المتاحة لهم .

إنهم يسعون إلى انهيار الأخلاق ، عن طريق نشر الفاحشة ، وإقامة العلاقات الجنسية المحرمة ، حتى ولو كانت شاذة .

فليحذر أهل الإسلام من مكر الأعداء ، وخاصة اليهود أخزاهم الله ولعنهم ، ولينتبهوا لمكرهم وخداعهم وطعنهم الدائم في الإسلام وعقيدته ، وليتمسكوا بمبادئ الإسلام ومكارم الأخلاق ، وليتقوا الله تعالى باجتناب المحرمات والبعد عن مواطن الشبهات ، والله تعالى من وراء الأعداء محيط .

عاشراً : حسن الظن بأهل الإيمان .

لقد جاءت الدعوة صريحة في آيات الإفك تأمر بحسن الظن بالمؤمنين والمؤمنات ، وفي مفهومها تنهى عن سوء الظن بأهل الإيمان ، فقال تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

فمن حق المسلم على أخيه أن يحسن الظن به ، وأن تتواجد بينهما الثقة ، ولنا أن نتصور حال المجتمع أو الأسرة أو حتى الأفراد الذين تتلاشى من بينهم الثقة ، وينعدم بينهم حسن الظن ، ويحل محلهما الشك والارتياب وسوء الظن كيف يكون الحال وقتئذ ؟ .

حادي عشر : وجوب محاربة الشائعات .

لقد أرشدت الآيات – فيما أرشدت – إلى وجوب محاربة الشائعات ، وذلك عن طريق المنهج الرباني الذي دعا إليه الحق سبحانه وتعالى في تلك الآيات، وأدَّب به جماعة المسلمين ، يتمثل هذا المنهج في الترهيب من الكذب والتحذير من إشاعة الفاحشة ، بل التحذير من مجرد محبة ذلك ، ودفع الناس إلى التريث في الحكم على

الأشياء ، وأن لا يأخذوها بظواهرها ، وحسن الظن بالمؤمنين والمؤمنات ، والإنكار – بالقلب واللسان – على أصحاب الشائعات ، ورد الأخبار الكاذبة ، ومطالبة أصحابها بالدليل على ما يقولون كل ذلك من باب دفع المجتمع إلى محاربة الشائعات، التي تهدم أركان المجتمع وتقوض بنيانه، وتؤثر تأثيراً سلبياً على الأسر والأفراد .

إن الناس إذا فعلوا ذلك سدوا الباب أمام الذين يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وإذا سُدَّ هذا الباب استشعر الناس الأمن والأمان والطمأنينة على أنفسهم وأعراضهم ، وهذا ما يدعو إليه الإسلام الحنيف ، وتطلبه الأفراد ، ويرجوه المجتمع ، وإلا فلا نلومن إلا أنفسنا .

ثاني عشر : عدم التكلم بما ليس لنا به علم .

وقد دعت الآيات إلى هذا الدرس في موضعين ، فقال تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ ، وهي من الأمور التي رتب الله تعالى العذاب عليها ، كما سبق في تفسيره ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ ، على أن هذه الدعوة إلى عدم التكلم بما ليس لنا به علم ليست هي الوحيدة في القرآن ، بل جاءت تلك الدعوة صريحة محكمة في غير موضع في القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1] .

ونفى الحق سبحانه وتعالى الخير عن كثير مما يتناجى به الناس فيما بينهم ، فقال تعالى ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[2] .

كما دعا النبي ﷺ إلى ذلك أيضاً ، ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه

---

١ – الآية ٣٦ من سورة الإسراء .

٢ – أول الآية ١١٤ من سورة النساء .

قال (كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّثْ بكل ما سمع) [١] .

وإذا كان على العاقل أن لا يتكلم بكل ما يعلم ، إعمالاً للحكمة القائلة : (ليس كل ما يُعْلَم يُقَال) ، فإنه – ومن باب أولى – ، يجب عليه أن لا يتكلم بما ليس له به علم .

على أن ذلك من خصال الإيمان ، فالعاقل مِنْ الناس هو مَنْ يقول الخير ويصمت عما سواه ، وقد نبه النبي ﷺ إلى أن هذه خصلة من خصال الإيمان فقال ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ..) [٢] .

وفي الأثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : (من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به) [٣] .

وليعلم الإنسان أنه مسئول عن كل كلمة يتكلم بها ، وصدق الله العظيم القائل ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [٤] ، وليحذر من لسانه حتى لا يورده المهالك في الدنيا والآخرة .

ثالث عشر: عدم استصغار الذنوب .

أرشدت الآيات – فيما أرشدت – إلى عدم التهاون بالذنوب ، حتى وإن

---

١ – أخرجه مسلم في المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ، حديث رقم ٥ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٧/١ .

٢ – متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، برقم ٦٠١٨ ، وفي كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ، برقم ٦٤٧٥ ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير برقم ٤٧ . صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٣١٤/٤٦٠،١١/١٠ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٢٩٣/١

٣ – جامع العلوم والحكم /١٦٤ .

٤ – الآية ١٨ من سورة ق.

كانت صغيرة ، فقال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، وهو تحذير شديد من الإقدام على بعض الذنوب بحجة أنها صغيرة أو هينة ، كما يزين الشيطان لمرتكبيها ، وقد سبق في تفسيرها أنها إحدى ثلاث رتب الله عليها العذاب.

قال الرازي : كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم ، ويدل على أمور ثلاثة :

الأول : يدل على أن القذف من الكبائر ، لقوله ﴿ وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾.

الثاني: نَبَّه بقوله (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) على أن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه، بل ربما كان ذلك مؤكداً لعظمها من حيث جهل كونها عظيماً.

الثالث : الواجب على المكلف في كل مُحَرَّمْ أن يستعظم الإقدام عليه ، إذ لا يأمن أنه مـــن الكبائر، وقيل : لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار .أ.هـ [١] .

فربما ارتكب الإنسان ذنباً ، معتقداً أنه هنة صغيرة ، لكنه في حقيقته كبير عظيم عند الله تعالى ، وموازين الله غير موازين البشر ، كما قلنا سابقاً ، ومما يؤكد ذلك ما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : (وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً. يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) [٢] .

فالعاقل مِنْ الناس مَنْ لا يتهاون بصغائر الذنوب ، فمعظم النار من مستصغر الشرر، كما يقولون ، وقديماً قال ابن المعتز:

خل الذنوب صغيرهـــا ... وكبيرهـــا فهـــو التـــقى

واصنع كماش فـــوق ... أرض الشـــوك يحذر ما يرى

---

١ – التفسير الكبير ١٥٦/٢٣.

٢ – متفق عليه .أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ، برقم ٦٤٧٨ ، وأخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، برقم ٢٩٨٨ . صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٣١٤/١١ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٣٤٤/٩ .

معلقاً على هذه الآية (لن يغلب عسر يسرين)[١].

وفي موطأ مالك عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر ابن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم ، ومـا يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر : أما بعد (فإنه مهما يترل بعبد مؤمن من مترل شدة ، يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين)[٢].

هكذا طبيعة المؤمن . لا ييأس من روح الله ، ولا يفقد الأمل والثقة أبداً في فرج الله تعالى ، وصدق القائل :

عسى ما تري أن لا يدوم وأن ترى ... له فرجـاً ممـا ألح به الدهـر
عسى فرج يأتي بـه الله إنـه ... له كـل يوم فـي خليقتـه أمر
إذا لاح عسر فارج يسراً فإنـه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسر[٣]

---

١ – أخرجه – بنحوه– البخاري في كتاب التفسير ، سورة الم نشرح ، عن ابن عيينة رضي الله عنه ، وقال ابن حجر في شرحه للحديث : قوله (لن يغلب عسر يسرين):
روى هذا مرفوعاً وموصولاً ومرسلاً، وروى أيضاً موقوفاً ، أما المرفوع فأخرجه ابن مردويـه من حديث جابر بإسناد ضعيف ، ولفظه : (أوحى إليَّ : إن مع العسر يسراً ، إن مع العسـر يسراً ، ولن يغلب عسر يسرين). وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق من حـديث ابـن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه ولن يغلب عسر يسرين، ثم قال إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً" ، وإسـناده ضـعيف ، وأخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق الحسن عن النبي ﷺ ، وأخرجه عبد بن حميد عن ابـن مسعود بإسناد جيد من طريق قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآيـة فقال (لن يغلب عسر يسرين إن شاء الله) وأما الموقوف فأخرجه مالك – وسيأتي ذكره– أ ، هـ.
صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٥٨٢/٨.

٢ – أخرجه الإمام مالك في كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد ، الموطأ ٤٤٦/٢.

٣ – جامع العلوم والحكم /٢٤٦.

سادس عشر : علم الله محيط بكل شئ .

لقد أكدت الآيات على تلك الحقيقة ، وأشارت إليها في أكثر من موضع ، فليعلم الإنسان أن الله تعالى عليه رقيب ، وعلى عمله شهيد ، وبضميره خبير بصير، سبحانه وتعالى يعلم الدقائق والعظائم ، يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن ، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ،لا يحيط بعلمه شئ، وهو محيط بكل شئ، وعليم بكل شئ ، وقدير على كل شئ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

وليحذر الإنسان من مراقبة الله عليه ، لأن الله تعالى أقرب إلى عبده من كل شئ، حتى من الدم الذي يجري في عروقه، وصدق الله القائل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[١]. ومما روى عـن سلفنا الصالح مـا كتبه ابن السماك لأخ له وهو يعظه ، قال أما بعد : أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك ، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك ، واعلم أنك بعينه لست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه حذرك ، وليكثر منه وجلك، والسلام[٢].

وكان وهب بن الورد يقول : خف الله على قدر قدرته عليك ، واستحي منه على قدر قربه منك[٣].

فالعاقل من الناس هو الذي يستشعر هذه الرقابة الإلهية، ويعمل بمقتضاها ومن

---

١ – الآية ١٦ من سورة ق .

٢ – جامع العلوم والحكم /١٧٠.

٣ – المرجع السابق .

معلقاً على هذه الآية (لن يغلب عسر يسرين)[1].

وفي موطأ مالك عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر ابن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم ، ومـــا يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر : أما بعد (فإنه مهما يترل بعبد مؤمن من مترل شدة ، يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين)[2].

هكذا طبيعة المؤمن . لا ييأس من روح الله ، ولا يفقد الأمل والثقة أبداً في فرج الله تعالى ، وصدق القائل :

عسى ما تري أن لا يدوم وأن ترى ... له فرجـــاً ممـــا ألح به الدهر

عسى فرج يأتي بـــه الله إنـــــه ... له كـــل يوم فـــي خليقتـــه أمر

إذا لاح عسر فارج يسراً فإنـــه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسر[3]

---

١ – أخرجه – بنحوه– البخاري في كتاب التفسير ، سورة الم نشرح ، عن ابن عيينة رضي الله عنه ، وقال ابن حجر في شرحه للحديث : قوله (لن يغلب عسر يسرين): روى هذا مرفوعاً وموصولاً ومرسلاً، وروى أيضاً موقوفاً ، أما المرفوع فأخرجه ابن مردويـــه من حديث جابر بإسناد ضعيف ، ولفظه : (أوحى إليّ : إن مع العسر يسراً ، إن مع العـــسر يسراً ، ولن يغلب عسر يسرين). وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق من حـــديث ابـــن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه ولن يغلب عسر يسرين، ثم قال إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً" ، وإســـناده ضـــعيف ، وأخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق الحسن عن النبي ﷺ ، وأخرجه عبد بن حميد عن ابـــن مسعود بإسناد جيد من طريق قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآيـــة فقال (لن يغلب عسر يسرين إن شاء الله) وأما الموقوف فأخرجه مالك – وسيأتي ذكره– أ ، هـ.
صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٥٨٢/٨.

٢ – أخرجه الإمام مالك في كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد ، الموطأ ٤٤٦/٢.

٣ – جامع العلوم والحكم /٢٤٦.

سادس عشر : علم الله محيط بكل شئ .

لقد أكدت الآيات على تلك الحقيقة ، وأشارت إليها في أكثر من موضع ، فليعلم الإنسان أن الله تعالى عليه رقيب ، وعلى عمله شهيد ، وبضميره خبير بصير، سبحانه وتعالى يعلم الدقائق والعظائم ، يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن ، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ،لا يحيط بعلمه شئ، وهو محيط بكل شئ، وعليم بكل شئ ، وقدير على كل شئ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

وليحذر الإنسان من مراقبة الله عليه ، لأن الله تعالى أقرب إلى عبده من كل شئ، حتى من الدم الذي يجري في عروقه، وصدق الله القائل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[1] . ومما روى عـــن سلفنا الصالح مـــا كتبه ابن السماك لأخ له وهو يعظه ، قال أما بعد : أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك ، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك ، واعلم أنك بعينه لست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه حذرك ، وليكثر منه وجلك، والسلام[2].

وكان وهب بن الورد يقول : خف الله على قدر قدرته عليك ، واستحي منه على قدر قربه منك[3].

فالعاقل من الناس هو الذي يستشعر هذه الرقابة الإلهية، ويعمل بمقتضاها ومن

---

١ – الآية ١٦ من سورة ق .

٢ – جامع العلوم والحكم /١٧٠.

٣ – المرجع السابق .

لم يفعل ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه .

سابع عشر : وجوب سلامة القلب .

إن مما يستفاد من الآيات وجوب سلامة القلب للمؤمنين ، كوجوب كف الجوارح سواء بسواء ، نلحظ ذلك من قوله تعالى﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.. ﴾ ، فالآية الكريمة تفيد أن المحب لإشاعة الفاحشة هو مشارك في الإثم ، كمشاركة من فعله ومن لم ينكره ، وكأن الآية بمفهومها تقول : إن الإنسان كما يُعَاقَب على ما أظهره ، كذلك يستحق العقاب بما أسرَّه في قلبه من محبة إشاعة الفاحشة بين المؤمنين .

ثامن عشر: شؤم الحرص على المال .

وهذا درس آخر يتجلى من حادثة الإفك ، مأخوذ من سبب تأخر السيدة عائشة عن الجيش ، لأن تأخرها كان بسبب التماسها لعقدها ، وحبسها من أجل ابتغائه .

قال الحافظ ابن حجر : وفيه شؤم الحرص على المال ، لأنها لو لم تطل في التفتيش لرجعت بسرعة ، فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى ، وقريب منه قصة المتخاصمين ، حيث رفع علم ليلة القدر بسببهما ، فإنهما لم يقتصرا على ما لابد منه، بل زادا في الخصام حتى ارتفعت أصواتهما ، فأثر ذلك بالرفع المذكور،أ.هـ [1] .

فليحذر الإنسان من حرصه الشديد على المال ، وليعلم أن ذلك مشئوم .

تاسع عشر: فضيلة الإقتصاد في الأكل .

يستفاد هذا من قول السيدة عائشة رضى الله عنها : " وكانت النساء إذ ذاك خفافاً ، لم يهبلن ولم يغشهن اللحم [2]، إنما يأكلن العلقة من الطعام " [3] .

---

١ – فتح الباري ٣٣٧/٨.

٢ – تعني لم يثقلهن اللحم والشحم .

٣ – تعني القليل من الطعام .

قال النووي : فيه فضيلة الإقتصاد في الأكل للنساء وغيرهن، وألا يكثر منه بحيث يهبله اللحم، لأن هذا كان حالهن في زمن النبي ﷺ ، وما كان في زمانه فهو الكامل الفاضل المختار [1].

والإقتصاد في الأكل أدب إسلامي عظيم ، دعا إليه الشرع الحنيف، فقد ندب النبي ﷺ إلى التقليل من الأكل والإكتفاء ببعض الطعام ، وحذر ﷺ من الشبع المفرط ، فقال ﷺ فيما رواه عنه المقدام بن معد يكرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :(ما ملأ آدميٌّ وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه) [2].

فأفضل ما أكل الإنسان في ثلث بطنه ، وشرب في ثلث ، وترك للنفس ثلثاً .

و كثيراً ما حث السلف الصالح على فضيلة الإقتصاد في الطعام والشراب ، وعدم إتباع شهوة البطن، بملأ المعدة بما لذ وطاب من أنواع الطعام والشراب ، مع تحذيرهم الشديد من البطنة ، التي تؤدي إلى كثير من الأمراض المادية والمعنوية ، والأخبار والآثار في ذلك كثيرة جداً ومشهورة منها : ما روي عن عمرو بن قيس أنه قال : إياكم والبطنة ، فإنها تقسي القلب وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال : من ضبط بطنه ضبط دينه ، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة ، وإن معصية الله بعيدة من الجائع ، قريبة من الشبعان، والشبع يميت القلب ، ومنه يكون الفرح والمرح والضحك.

وعن مالك بن دينار أنه قال : ما ينبغي للمؤمن أن يكون بطنه أكبر همه ، وأن

---

١ – صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٩/٩.

٢ – أخرجه أحمد في المسند ٢٩٤/١٣ ، برقم ١٧١٢٠، وقال المحقق : إسناده صحيح.

وأخرجه الترمذي – واللفظ له – في كتاب الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثـرة الأكـل ، برقم ٢٣٨٧ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، سننه ١٦٨/٤ .

الحادي والعشرون : الاسترجاع عند المصائب .

ومعنى الاسترجاع أن يقول الإنسان عند المصيبة (إنا لله وإنا إليه راجعون).

وهذا درس مستفاد من فعل صفوان رضى الله عنه ، فور رؤيته للسيدة عائشة رضى الله عنها ، حيث بادر صفوان إلى الاسترجاع، واستيقظت السيدة عائشة باسترجاعه كما ذكرت رضى الله عنها .

فعلى الإنسان – إذا كان مؤمنا– أن يبادر إلى الاسترجاع إذا أصيب بمصيبة في دينه أو دنياه ، سواء كانت المصيبة في نفسه أو فيمن يعز عليه ، فهذا أدب إسلامي ، وخُلق إيماني ، ودعوة قرآنية ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾[1] .

والملاحظ في الآية الأخيرة أنها نصت على جملة من الفوائد تعود على المسترجع . صلوات من ربهم ... ورحمة ... وهداية ... مع الإشارة إليهم ببعد المنزلة والمكانة ، واختصاصهم دون غيرهم بهذه الفوائد .

فما أجمل هذه الفوائد ، وما أحسن التخلق بأخلاق القرآن الكريم .

الثاني والعشرون : وجوب إغاثة الملهوف .

لقد دعانا صفوان رضى الله عنه بفعله مع السيدة عائشة رضى الله عنها إلى درس عظيم ، يتلخص في أنه يجب على المسلم إغاثة الملهوف ، وعون المنقطع ، وإنقاذ الضائع ، وإكرام ذوي الأقدار ، وتجشم المشقة لأجل ذلك ، كما فعل صفوان في هذا كله ، وليتذكر المسلم أن الجزاء من جنس العمل ، وأن الإحسان

١ – الآيات ١٥٥:١٥٧ من سورة البقرة .

جزاء الإحسان ، وأن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

الثالث والعشرون : حسن الأدب مع الأجانب .

إن من أعظم الدروس المستفادة من حادثة الإفك : حسن الأدب مع الأجانب، وخاصة النساء ، لاسيما إذا دعت الضرورة للخلوة بهن .

ويستفاد ذلك من موقفين :

الأول : من الذين كانوا يحملون هودج السيدة عائشة رضى الله عنها ، حيث حملوا الهودج ، ورحلوه على البعير الذي كانت رضى الله عنها تركبه ، وهم يحسبون أنها فيه ، وبعثوا الجمل وساروا .

وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا في غاية الأدب مع السيدة عائشة رضى الله عنها ، حتى إنهم تركوا التنقيب عما في الهودج ، مبالغة في الأدب مع صاحبته ، وقد ظنوا أنها بداخله ، مع أنها لم تكن فيه ، ولعلهم اعتقدوا أنها نائمة .

الثاني: من فعل صفوان رضى الله عنه ، حيث أناخ الرجل راحلته من غير كلام ولا سؤال – غير استرجاعه – وانطلق أمام السيدة عائشة يقود بها الراحلة ، حتى أتى الجيش .

وما أحوجنا في واقعنا المعاصر إلى التأدب بهذا الأدب الجميل ، والتخلق بهذا الخلق الحميد ، والتشبه بهؤلاء العظماء ، وصدق القائل :

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالرجال فلاح

فإذا دعت الضرورة إلى الخلوة بامرأة أجنبية في أي مكان ، فليتق الإنسان ربه، وليستشعر رقابة الله عليه ، وليتأدب بآداب الإسلام ، وليتخلق بأخلاق

١ – من الآية ٢٠ – والأخيرة – من سورة المزمل .

الصالحين ، وليعلم أنه كما يدين المرء يدان .

الرابع والعشرون : حسن معاشرة الأزواج .

إن مما يستفاد من حادثة الإفك : حسن معاشرة الأزواج ، واستحباب ملاطفة الرجل زوجته ، ويؤخذ هذا مما كان يفعله النبي ﷺ بأزواجه ، وتلطفه مع السيدة عائشة خاصة ، كما أخبرت هي عن نفسها في حديث الإفك ، حتى إنه ﷺ مع ما بلغه عن عائشة كان يدخل عليها ويسأل عنها وهي مريضة ، ما استشعرت منه ما يخالف حسن العشرة ، إلا ما استشعرته من قلة اللطف الذي اعتادت عليه من زوجها ﷺ .

وهذا يرشدنا أيضاً إلى أنه يجوز للرجل أن يقلل ما اعتاد عليه من التلطف بزوجته ، عند حدوث ما يقتضي التقليل والنقص ، لعل الزوجة تفطن لتغيير الحال ، فتصلح ما عساها قد أفسدته ، أو تسأل زوجها عن سبب تغير عادته فتزيل السبب أو تعتذر ، وينصلح الحال .

على أيّة حال الرجل مأمور بحسن العشرة ، حتى مع كراهته للزوجة ، وهذه دعوة قرآنية واضحة ، فالله تعالى يقول مخاطباً الأزواج : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [1].

الخامس والعشرون : تقرير مبدأ الشورى .

لقد تجلى هذا الدرس من حادثة الإفك في كثير من المواقف ، منها : استشارة النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ، وسؤال النبي ﷺ الجارية عن حال عائشة ، وكذا استعذاره عليه السلام من عبد الله بن أبي .. وغير ذلك .

ولذلك بَوَّبَ الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب

١ – آخر الآية ١٩ من سورة النساء .

(وأمرهم شورى بينهم) ، وذكر فيه الحديث مختصراً .

والشورى مبدأ إسلامي لا يصح تجاهله ، ودعوة قرآنية يجب إتباعها ، وهي من صفات المؤمنين الصادقين ، التي تميزهم عن غيرهم ، وفي القرآن الكريم سورة كاملة تسمى (سورة الشورى) ، ذكر الله تعالى فيها بعضاً من صفات المؤمنين ، وفيها يقول تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [1].

فعلى الإنسان أن يستشير أهله وبطانته ومن جَرَّبَ الأمور ومن يثق برأيهم ، في كل أمر يود القيام به ، حتى وإن كان المستشار أدنى من المستشير ، فهذا رسول الله ﷺ مع أنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحي ، إلا أنه ﷺ لم يستنكف أبداً عن مشاورة أصحابه ، والأمثلة على ذلك في أحداث السيرة النبوية كثيرة ومشهورة ، بل ربما نزل النبي ﷺ على رأي أصحابه وفيه مخالفة لرأيه ﷺ ، كما حدث في خروجه ﷺ يوم أحد ، وكيف لا يفعل ﷺ ذلك وقد أمره ربه عز وجل بقوله ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [2].

ونحن لنا في رسول الله أسوة حسنة ، فلا ينبغي التغافل عن هذا المبدأ ، الذي يعود على المسلمين جميعاً بالخير والفلاح ، وقديماً قالوا : من شاور الناس شاركهم في عقولهم .

السادس والعشرون : ارتكاب أخف الضررين .

في قول الإمام علي رضى الله عنه لرسول الله ﷺ : " لم يضيق الله عليك ،

١ – الآية ٣٨ من سورة الشورى .

٢ – من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

والنساء سواها كثير " (١). درس مستفاد ، يتلخص في جواز ارتكاب أخف الضررين ، لذهاب أشدهما ، وهو أمر موافق لأصول الشريعة الإسلامية ، التي بُنِيَتْ على دفع أعلى المفسدتين بارتكاب أخفهما ضرراً.

السابع والعشرون : المبادرة إلى قطع الفتن .

ويستفاد ذلك من فعله ﷺ مع أصحابه ، حين قام على المنبر يستعذر من ابن أبي ، وثار الحيان – الأوس والخزرج – حتى هموا أن يقتتلوا ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم ويهون عليهم ، حتى سكتوا وسكت .

فدل ذلك على أن الواجب على المسلمين أن يبادروا إلى وأد الفتن وقطع الخصومات والقضاء على المنازعات وتسكين ثائرة الغضب ، وسد جميع الذرائع المؤدية إلى ذلك .

الثامن والعشرون : تفويض الكلام للكبار .

في قول السيدة عائشة لأبيها : أجب عني رسول الله ، ولأمها : أجيبي عني رسول الله . درس مهم ، مؤداه : تفويض الكلام إلى الكبار ، لأنهم أعرف بمقاصده ومراميه ، وهذا من حسن الأدب الذي علمنا إياه الإسلام الحنيف ، وحينما ابتعد الناس عن هذا المنهج القويم حدث ويحدث ما لا تحمد عقباه ، فكم من علاقات تقطعت بتطاول الصغار على الكبار ، وكم من مجالس فسدت لعدم احترام الصغير للكبير ، وكم من صغار زينت لهم أنفسهم أنهم أعلم وأحكم وأدرى من غيرهم ، حتى وإن كانوا من ذوي الخبرات ، ولذلك اختلط الحابل بالنابل ، وأصبح الناس في حيص بيص (٢)، ولا مخرج مما نحن فيه إلا بالعودة إلى آداب الشرع الحنيف ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإنزال الناس منازلهم التي تليق بهم .

١ – سبق شرحه، وغرض الإمام منه .

٢ – معناه – كما قال أهل اللغة – وقعوا في فتنة تموج بأهلها متقدمين ومتأخرين .

التاسع والعشرون : عدم الاعتراف بما لم يقع :

ويؤخذ من حادثة الإفك أيضاً أنه لا يجوز أن يعترف الإنسان على نفسه بفعل ما لم يقع منه ، كما فعلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، فقد امتنعت عن الاعتراف بما لم تفعله .

فعلى الإنسان أن لا يعترف بما لم يفعله ، حتى وإن علم أنه يُصَدَّقْ في اعترافه، بل عليه أن يقول الحق أو يصمت عن غيره .

ولكن ما لا نستطيع إنكاره في واقعنا المعاصر ، ما عَمَّتْ به البلوى ، من أنه ربما اضطر الإنسان – تحت الضغوط البشرية ، وعلى رأسها الضغوط الأمنية – أن يعترف على نفسه بما لم يفعله ، طمعاً في النجاة ، أو الخلاص مما هو فيه ، أو حتى تخفيف العذاب عنه .

وأظن – والله أعلم – أن الإنسان في هذه الحالة لا ذنب عليه ، ولا يؤاخذ بما يترتب على اعترافه هذا ، إلا أنه قد فعل خلاف الأولى ، فالأولى به أن يصبر على الأذى ، وأن لا يعترف بما لم يفعله ، وأن يلتزم بقول الحق وأن يصمت عن غيره ، فإن اضطر فلا بأس عليه ، والله تعالى يقول : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

الدرس الثلاثون : استحباب أن يُسْتَرْ عن الإنسان ما يُقَال فيه .

ومما يستفاد من حادثة الإفك أيضاً أنه يستحب أن يستر عن الإنسان ما يقال فيه ، خاصة إذا لم يكن في ذكره له فائدة ، وهذا مأخوذ من كتمانهم الخبر عن السيدة عائشة رضى الله عنها لمدة شهر كامل ، حتى إنها لم تسمع بالخبر إلا مصادفة من أم مسطح.

ويتأكد هذا الدرس مع الإنسان إذا كان مريضاً ، فلا ينبغي لأهل المريض أن

١ – آخر الآية ١٧٣ من سورة البقرة .

يخبروه بما يؤذيه أو يزعجه ، لئلا يزيد ذلك في مرضه ، فكم من مريض ازداد مرضه بسبب معرفة دائه ، أو تأخر الشفاء بسبب معلومة نقلت إليه عن حقيقة مرضه ، وعلى العكس ، ربما كان إخفاء الحقيقة سبباً في تعجيل الشفاء ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وفي حادثة الإفك – غير ما ذُكِرْ – من الدروس العظيمة ما نحتاج إلى فهمه والعمل به في واقعنا المعاصر، ولكن فيما ذكر غنية ،

واكتفى به خشية الإطالة ،

والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

وبعـــد :

فهذا ما وفقني الله تعالى إليه في كتابة هذا البحث حول آيات الإفك ، أردت به المساهمة في تفسير جزء من القرآن الكريم ،والوقوف على الدروس المستفادة منه.

فما كان من خير وتوفيق فمن الله وحده ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وما كان فيه من غير ذلك فمن نفسي وتقصيري ، وأرجو من الله غفران الذنوب ، ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [1].

وختامـــا :

أسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل المتواضع ، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات وَالِدَيَّ يوم الدين ، وأن يتجاوز عما وقع فيه من أخطاء غير مقصودة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [2].

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [3].

دكتور

أحمد رمضان مصطفى دياب

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

---

١ – الآية ٥٣ من سورة يوسف .

٢ – آخر سورة البقرة .

٣ – آخر سورة الصافات .

فهرس المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم ، كلام رب العالمين ، برواية حفص عن عاصم .

٢- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، للبناء ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .

٣- أحكام القرآن ، لابن العربي ، ط دار الفكر / بيروت ، بدون تاريخ .

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المشهور بتفسير أبي السعود ، ط دار الفكر / بيروت ، بدون تاريخ .

٥- أسباب الترول ، للوا حدي النيسابوري .

٦- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، لابن المنير ، مطبوع على هامش كتاب الكشاف الزمخشري ، وسيأتي ذكره .

٧- أنوار التريل وأسرار التأويل ، للقاضي البيضاوي ، المشهور بتفسير البيضاوي ، ط الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى ، بدون تاريخ .

٨- البحر المحيط ، لأبي حيان ، ط دار الفكر / بيروت ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

٩- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ، لعبد الفتاح القاضي ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ .

١٠- تفسير الخازن ، المسمى : لباب التأويل في معاني التريل ، ط دار الكتب العلمية / بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ-١٩٩٠م .

١١- تفسير القرآن العظيم ، المشهور بتفسير ابن كثير ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .

١٢- التفسير الكبير ، أو مفاتيح الغيب ، للإمام الرازي ، ط دار الكتب العلمية / بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م .

١٣- جامع البيان في تأويل أي القرآن ، المشهور بتفسير الطبري ،ط الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م .

١٤- جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق / محمود النادي ، ط دار ابن الهيثم / القاهرة ، ٢٠٠٤م .

١٥- الجامع لأحكام القرآن ، المشهور بتفسير القرطبي ، ط دار الكتب العلمية / بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م .

١٦- حاشية الجمل على الجلالين ، المُسَمَّاة : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ .

١٧- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، المُسَمَّاة : عناية القاضي وكفاية الراضي ، للشهاب الخفاجي ، ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .

١٨- الحجة في القراءات السبع ، لابن خالويه ، ط دار الكتب العلمية بيروت .

١٩- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي ، ط دار الفكر/ بيروت ١٤١٤هـ-١٩٩٣م .

٢٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، المشهور بتفسير الألوسي ، ط دار الفكر / بيروت ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢١- زهرة التفاسير ، للشيخ / محمد أبو زهرة ، ط دار الفكر العربي بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٢٢- سنن ابن ماجة ، تحقيق / طه عبد الرءوف سعد ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ .

٢٣- سنن أبي داود ، ط دار الحديث بالقاهرة ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٤- سنن الترمذي ، ط دار الفكر / بيروت ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .

٢٥- السيرة النبوية ، لابن هشـــام ، تحقيق / طـه عـبد الرءوف سعد ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ .

٢٦- الصحـــاح ، المسمى : تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري ، تحقيق / شهاب الدين أبو عمرو ، ط دار الفكر / بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م .

٢٧- صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ، ط دار الريان بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م .

٢٨- صحيح مسلم بشرح النووي ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م .

٢٩- فتح القدير ، للشوكاني، ط دار الفكر / بيروت ، بدون تاريخ .

٣٠- في ظلال القرآن ، للشهيد سيد قطب ، ط دار الشروق ، الطبعة الرابعة والثلاثون ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٤م .

٣١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل المشهور بتفسير الكشاف ، الزمخشري ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م .

٣٢- لباب النقول في أسباب النزول ، للسيوطي ، ط الحلبي بمصر .

٣٣- لسان العرب ، لابن منظور ، ط دار صادر . بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤مـ .

٣٤- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني تحقيق / محمد عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية / بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .

٣٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بمكناس ، ط وزارة الأوقاف المغربية ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

٣٦- مختصر في شواذ القرآن ، لابن خالويه ، ط مكتبة المتنبي بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٣٧- المسند ، للإمـــام أحمد ، تحقيق / أحمد محمد شاكر وحمزة الزين ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م .

٣٨- معاني القرآن ، للفراء ، تحقيق / عبد الفتاح شلبي ، ط دار السرور ، بدون تاريخ .

٣٩- المعجم الوجيز ، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط وزارة التربية والتعليم بمصر ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م .

٤٠- مفردات غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق / محمد سيد كيلاني ، ط دار المعرفة / بيروت ، بدون تاريخ .

٤١- الموطأ ، للإمـــام مـــالك بن أنس ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار الحلبي بمصر ، بدون تاريخ .

٤٢- النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م .

٤٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ،للبقاعي ، تحقيق / عبد الرزاق غالب المهدي ، ط دار الكتب العلمية / بيروت .

والله ولي التوفيق

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع